قصة
سيدنا موسى عليه السلام

١ـ من كنعان إلى مصر

انْتَقَلَ يَعْقُوبُ عليه السلام إلى مِصْرَ ، وانْتَقَلَ مَعَهُ أَوْلادُهُ .

انْتَقَلُوا إلى مِصْرَ ، لأَنَّ يُوسُفَ بْنَ يَعْقُوب عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ هُوَ سَيِّدُ مِصْرَ ، يَأْمُرُ وَيَنْهَى فِيهَا .

وَكانُوا في كَنْعَانَ يَرْعَوْنَ الْغَنَمَ ، وَيَحْلِبُونَ الشَّاةَ ويَبِيعُونَ الصُّوفَ .

وَعَبِيدُ يُوسُفَ وَخَدَمُهُ يَأْكُلُونَ وَيَنْعَمُونَ في مصْرَ .

فَمَا يَصْنَعُونَ في كَنْعَانَ ؟ وَلِمَاذَا لا يَذْهَبُونَ إلى مِصْرَ ؟

أَرْسَلَ يُوسُفُ إِلَى يَعْقُوبَ وَأَهْلِهِ وَطَلَبَهمْ مَنْ كَنْعَان .

وَكَانَ يُوسُفُ لَا يَطيبُ لَهُ طَعَامٌ وَلَا شَرَابٌ حَتَّى يَرَى أَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ .

وَكَيْفَ يَطِيبُ لَهُ طَعَامٌ وَشَرابٌ ، وَكَيْفَ يَطِيبُ لَهُ عَيْشٌ وَهُوَ وَحِيدٌ فِي مِصْرَ ؟

وَمَاذَا يَصْنَعُ بِالْقُصُورِ وَأَبُوهُ وَإِخْوَتُهُ فِي بَيْتٍ صَغِيرٍ فِي كَنْعانَ ؟

وَجَاءَ يَعْقُوبُ وَأَوْلَادُهُ إِلَى مِصْرَ فاستقبلهم يوسف وفرح بهم فرحًا عظيمًا ، واستقبلت أسرة سيدها وَأُسْرَةَ مَلِكِهَا الْكَرِيمِ وَفَرِحتْ بِهَا فَرَحًا عَظِيمًا .

وَأَحَبَّ أَهْلُ مِصْرَ هَذَا الْبَيْتَ الْكَرِيمَ ؛ لأَنَّهُمْ يُحِبُّونَ يُوسُفَ لِكَرَمِهِ وِإِحْسَانِهِ إِلى النَّاسِ .

وَلأَنَّهُمْ رَأَوْا فِي يُوسُفَ أَخًا نَاصِحًا شَفِيقًا ، فَرَأَوْا فِي يَعْقُوبَ وَالدًا مَاجِدًا كَرِيمًا .

وَكَانَ يَعْقُوبُ كَبِيرَ الْبِلَادِ ، وَشَيْخَ مِصْر ، وَكَانَ أَهْلُ مِصْرَ لَهُ كَالأَبْنَاءِ .

وَطَابَتْ لِيَعْقُوبَ وَأَبْنَائِهِ الإِقَامَةُ فِي مِصْرَ ، وَصَارَتْ لَهُمْ وَطَنًا .

٢ـ بعد يوسف

وَبَعْدَ مُدَّةٍ مَاتَ يَعْقُوبُ فَحَزِنَ عَلَيْهِ يُوسُفُ وَحَزِنَ عَلَيْهِ أَهْلُ مِصْرَ .

وَدَفَنُوا الشَّيْخَ فِي مِصْرَ وَكَأَنَّهُمْ فَقَدُوا أَبَاهُمْ .

وَبَعْدَ مُدَّةٍ مَاتَ يُوسُفُ أَيْضًا فَكَانَ يَوْمًا عَلَى أَهْلِ مِصْرَ شَدِيدًا .

وَحَزِنَ عَلَيْهِ أَهْلُ مِصْرَ حُزْنًا شَدِيدًا وَبَكُوا بُكاءً طَوِيلًا .

وَنَسِيَ النَّاسُ أَحْزَانَهُمْ ، وَكَأَنَّهُمْ لَمْ تُصِبْهُمْ مُصِيبَةٌ قَبْلَ هذَا الْيَوْمِ .

وَدَفَنُوا يُوسُفَ أَيْضًا وَعَزَّى بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، فَكَانُوا فِي يُوسُفَ سَوَاءَ .

كُلُّ صَغِيرٍ فَقَدَ أَبَاهُ وَكُلُّ كَبِيرٍ فَقَدَ أَخَاهُ ، وَمَشَى النَّاسُ إِلَى إِخْوةِ يُوسُفُ وَأَبْنَائِهِم يُعَزُّونَهُمْ .

وَيَقُولُونَ لَهُمْ : أَيُّهَا السَّادَةُ ! لَيْسَتْ خَسَارَتُكُمْ الْيَوْمَ أَكْبَرَ مِنْ خَسَارَتِنا نَحْنُ .

فَقَدْ فَقَدْنَا فِي دَفِينِ الْيَوْمِ أَخًا شَفِيقًا ، وَسَيِّدًا رَحِيمًا ، وَمَلِكًا عَادِلًا .

هُوَ الَّذِي أَرَاحَ الْعِبَادَ ، وأَزَالَ الظُّلْمَ مِنَ البِلَادِ .

هُوَ الَّذِي مَنَعَ الْكَبِيرَ يَظْلِمُ الصَّغِيرَ ، وَمَنَعَ الْقَوِيَّ يَأْكُلُ الضَّعِيفَ .

هُوَ الَّذِي أغاثَ الْمَظْلُومَ ، وَأَجَارَ الْخَائِفَ وَأَطْعَمَ الْجَائِعَ .

هُوَ الَّذِي هَدَانَا إِلَى الْحَقِّ وَدَعَانَا إلى الله ، وَكُنَّا قَبْلَ قُدُومِهِ بَهَائِمَ لا نَعْرِفُ الله ولا نَعْرِفُ الآخِرَةَ .

هُوَ الَّذِي أَغَاثَنَا أَيَّامَ المجَاعةِ فَكُنَّا نَأْكُلُ وَنَشْبَعُ ، وَالنَّاسُ يَمُوتُونَ فِي الْبِلادِ الأُخْرَى ، إِنَّا لَا نَنْسَى مَلِكَنَا الْكَرِيمَ أَبدًا ، وَلَا نَنْسَى أَيَّهَا السَّادةُ أَنَّكُمْ إِخْوَتُهُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ .

وَكَمْ فَرِحَ بِكُمْ سَيِّدُنَا يَوْمَ قُدُومِكُمْ إِلَى مِصْرَ وَكَمْ فَرِحْنَا بِفَرَحِ سَيِّدِنَا .

فَالْبِلَادُ بِلَادَكُمْ ، وَإِنَّا لَكُمْ أَيُّهَا السَّادَةُ كُنَّا فِي حَيَاةِ سَيِّدِنَا .

٣ـ بنو إسرائيل في مصر

وَهَكَذَا كَانَ مُدَّةً طَوِيلَة !

فَقَدْ حَفِظَ أَهْلُ مِصْرَ مَا قَالُوا وَعَرَفُوا لِلْكَنْعَانِيِّنَ الْفَضْلَ .

وَكَانَ هَؤُلاءِ الْكَنْعَانِيُّونَ الَّذينَ كَانُوا يُدْعَوْنَ « بَنِي إِسْرَائِيلَ » أَصْحَابَ شَرَفٍ وَأَمْوَالٍ .

وَلَكِنْ تَغَيَّرتِ الأَحْوَالُ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَقَدْ فَسَدَتْ أَخْلَاقُهُمْ ، وَتَرَكُوا الدَّعْوَةَ إِلى الله وَدُعَاءَ الْخَلْقِ إِلَى الله ، وسَقَطُوا عَلَى الدُّنْيَا .

وَتَغَيَّرَ لَهُمُ النَّاسُ أَيْضًا وَصَارُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ بِغَيْرِ مَا كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلى آبائِهِم .

وَصَارُوا كَسَائِرِ النَّاسِ ، لَا يَمْتَازُونَ عَنِ النَّاسِ إِلَّا بِالنَّسَبِ .

وَصَارَ النَّاسُ يَحْسُدُونَ الْغَنِيَّ مِنْهُمْ وَيَحْتَقِرُونَ الْفَقِيرَ مِنْهُمْ .

وَصَارَ أَهْلُ مِصْرَ يَنْظُرونَ إِلَيْهِم كَغَرِيبٍ جَاءَ مِنْ بَلَدٍ آخَرَ .

وَلَيْسَ لَهُ حَقٌّ فِي مِصْرَ .

وَكَانَ أَهْلُ مِصْرَ يَعْتقِدُونَ أَنَّهُمْ أَهْلُ الْبِلادِ ، وَأَنَّ مِصْرَ لِلْمِصْرِيِّينَ .

وَيَرَى بَعْضُ أَهْلِ مِصْرَ أَنَّ يُوسُفَ كَانَ غَرِيبًا جَاءَ مِنْ كَنْعَانَ .

وَاشْتَرَاهُ عَزِيزُ مِصْرَ .

وَلَيْسَ لِلْكَنْعَانِي أَنْ يَحْكُمَ مِصْرَ .

وَنَسِيَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَضْلَ يُوسُفَ وَكَرَمَهُ وَإِحْسَانَهُ .

٤ـ فرعون مصر

وَجَاءَ عَلَى عَرْشِ مِصْرَ فَراعِنةٌ « مِلوك مِصْرَ » يُبْغضُون بَنـي إِسْـرَائيل بُغْـضًا شَدِيدًا .

وَجَاءَ عَلَى عَرْشِ مِصْرَ مَلِكٌ جَبَّارٌ جِدًّا ، فَكَانَ لَا يَرَى أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِـنْ أَوْلَادِ الأَنْبِيَاءِ ، وَأَنَّهُمْ مِنْ بَيْتِ يُوسُفَ مَلِكِ مِصْرَ الْكَرِيمِ .

بَلْ كَانَ لَا يَرَى أَنَّهُمْ بَشَرٌ يَسْتَحِقُّونَ الرَّحْمَةَ وَالإِنْصَافَ .

وَجَاءَ عَلَى عَرْشِ مِصْرَ مَلِكٌ جَبَّارٌ جِدًا .

وَكَانَ يَرَى أَنَّ قَوْمَهُ الْقِبطَ مِنْ نَوْعٍ ، وَأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ .

الْقِبْطَ مِنْ نَوْعِ الملوكِ ليحكموا ، وبنـو إسـرائيل مـن نـوع العبيـد خُلِقُـوا لِيَخْدِمُوا .

وَكَانَ فِرْعُونُ يُعامِلُ بَنِي إِسْـرَائِيلَ مُعَامَلَـةَ الْحَمِيـر وَالـدَّوابِّ يَـسْتَخْدِمُهَا الإِنْسَانُ وَلَا يُعْطِيهَا إِلَّا قُوتَ يَوْمِهَا .

وَكَانَ فِرْعَونُ مَلِكًا جَبَّارًا مُتَكَبِّرًا لَا يَرَى فَوْقَهُ أَحَدًا .

وَكَانَ لَا يُؤْمِنُ بَالله بَلْ كَانَ يَقُولُ : ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] .

وَكَانَ مَغْرورًا بِمُلْكِهِ وَقُصُورِهِ وَقُوَّتِـهِ وَيَقُـول : ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف:٥١] .

وَكَأَنَّهُ كانَ خَلِيفةً لِنَمْرُودَ مَلِكَ بَابِل .

وَكَانَ يَغْضَبُ إِذَا عَلِمَ أَحدًا يَرَى فَوْقَهُ أَحَدًا .

وَدَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَتِهِ وَالسَّجُودِ لَهُ ، وَأَطَاعَهُ النَّاسُ .

وامْتَنَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ ؛ لأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بالله وَيُؤْمِنُونَ بِرُسِلِهِ ، وَاشْتَدَّ غَضَبُ فِرْعَوْنَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ .

٥ـ ذبح الأطفال

وَذَهَبَ كَاهِنٌ قِبْطِيٌّ إِلَى فِرْعَونَ وَقَالَ لَهُ :

« يُولَدُ مَوْلُودٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَذْهَبُ مُلْكُكَ عَلَى يَدِهِ » .

وَجُنَّ جُنُونُ فِرْعَونَ ، وَأَمَرَ الشُّرْطَةَ أَنْ يَذْبَحُوا كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ فِي بَنِي إِسْرَائِيل .

وَكَانَ فِرْعَوْنُ يَرَى أَنَّهُ رَبُّ النَّاسِ يَذْبَحُ مَنْ يَشَاءُ وَيَتْرُكُ مَنْ يَشَاءُ .

كَصَاحِبِ الْغَنَمِ يَذْبَحُ مِنْ غَنَمِهِ مَا يَشَاءُ وَيَتْرُكُ مَا يَشَاءُ .

وَانْتَشَرَتِ الشُّرْطَةَ فِي مَصْرَ يُفَتِّشُونَ وَيَبْحَثُونَ .

فَإِذَا عَلِمُوا مَوْلُودًا وُلِدَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، أَخَذُوهُ وَذَبَحُوهُ كَمَا تُذْبَحُ النَّعْجَةُ .

وَعَاشَتِ الذِّئَابُ فِي الغَابَةِ ، وَعَاشَتِ الْحَيَّات والْعَقَارِبُ فِي الْبَلَدِ ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لها أَحَدٌ .

وَلَكِنْ مَا كَان لِمَوْلُودٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعِيشَ فِي مَمْلَكَةِ فِرْعَوْنَ .

وَذُبِحَ أُلوفٌ مِنَ الأَطْفَالِ أَمَامَ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ .

وَكَانَ الْيَوَمُ الَّذِي يُولَدُ فيهِ مُوْلُودٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَوْمًا عَسِيرًا .

وَكَانَ يَوْمَ حُزْنٍ وَبُكَاءٍ .

وَكَانَ الْيَوَمُ الَّذِي يُولَدُ فيهِ مُوْلُودٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَوْمَ تَعْزِيَةٍ وَرِثَاء .

وَكَانَ يُذْبَحُ مِئَاتٌ مِنَ الأَطْفَالِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ كَعِيدِ الأَضْحَى .

يُذْبَحُ فِيهِ مِئَاتٌ مِنَ الْغَنَمِ وَالنِّعَاجِ وَالْبَقَرِ : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص:٤] .

٦ـ ولادة موسى

وَأَرَادَ الله أَنْ يَقَعَ مَا كَانَ فِرْعَوْنُ يَخَافُهُ وَيَحْذَرُهُ .

وُلِدَ ذَلِكَ الْمَوْلُودُ الَّذِي قَدَّرَ الله أَنْ يَذْهَبَ مُلكُ فِرْعَوْنَ عَلَى يَدِهِ .

وُلِدَ ذَلِكَ الْمَوْلودُ الَّذِي قَدَّرَ الله أَنْ يَكُونَ خَلَاصُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى يَدِهِ .

وُلِدَ ذَلِكَ الْمَوْلودُ الَّذِي قَدَّرَ الله أَنْ يَخْرِجَ النَّاسَ مِنْ عِبَادَةِ النَّاس إِلَى عِبَادَةِ الله .

وُلِدَ ذَلِكَ الْمَوْلودُ الَّذِي قَدَّرَ الله أَنْ يُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .

وُلِدَ مُوسى بْنُ عِمْرَان عَلَى رَغْمِ فِرْعَوْنَ وَجُنُوْدِهِ .

وَعاشَ موسى ثَلَاثَة أَشْهرٍ عَلَى رَغْمِ الشُّرْطَةِ وَرَقَابَتِهِمْ .

٧ـ في النيل

وَلَكِنْ خَافَتْ أُمُّ مُوسى عَلَى مَوْلودِهَا الْجَمِيلِ ، وَكَيْفَ لاَ تَخَافُ وَعَدُوُّ الأَطْفَالِ بِمِرْصَاد ؟

وَكَيْفَ لاَ تَخَافُ ، وَقَدِ اخْتَطَفَتِ الشُّرْطَةُ عَشَرَاتٍ مِنَ الأَطْفَالِ مِنْ حِجْرِ الأُمَّهَاتِ فِي أُسْرَتِهَا .

مَاذَا تَصْنَعُ الأُمُّ الْمِسكِينَةُ ، وأَيْنَ تُخفي هَذَا الْمَوْلُودَ الجَمِيلَ والشُّرْطَةُ لَهُمْ

عُيُونُ الْغُرابِ وَشَاقُّ النَّمل ، هُنَالِكَ أَغَاثَ الله الأُمَّ الْمِسْكِينَةَ ، وَأَلْهَمَهَا أَنْ تَضَعَهُ فِي صُنْدُوقٍ وَتُلْقِيه فِي النِّيل .

الله أَكْبَرُ ، كَيْفَ تَضَعُ الأُمُّ الْحَنُونُ طِفْلَهَا .

فِي صُنْدُوقٍ وتُلْقِيهِ فِي النِّيل .

مَنْ يُرْضِعُ الطِّفْلَ فِي الصَّنْدُوقِ ؟ وَكَيْفَ يَتَنَفَّسُ الطِّفْلُ فِي الصَّنْدُوق ؟!

فِي كُلِّ ذَلِكَ فَكَّرَتِ الأُمُّ الحَنُونُ ، وَلَكِنَّها تَوَكَّلَتْ عَلَى الله واعْتَمَدَتْ عَلَى وَحْيِ الله .

وَلَيْسَ الْبَيْتُ أَحْفَظَ للطِّفْلِ مِنَ الصَّنْدُوق ؟

هُنَا الشُّرْطَةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَعَدُوُّ الأطْفَالِ بِمرْصَادٍ .

وَالشُّرْطَةُ لَهُمْ عُيُونُ الْغُرَابِ وَشَامَّةُ النَّمْلِ .

وَفَعَلَت الأُمُّ الْمِسْكِينَةُ مَا أَمَرَهَا الله ، وَوَضَعَتْ طِفْلَهَا الْجَمِيلَ فِي صُنْدُوقٍ وَأَلْقَتْهُ فِي النِّيل .

وَجَزَعْتِ الأُمُّ الْحَنُونُ ثُمَّ صَبَرَتْ وَتَوكَّلْتْ عَلَى الله .

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٧] .

٨ ـ في قصر فرعون

كَانَ فِرْعَوْنُ لَهُ قُصُورٌ كَثِيرَةٌ عَلَى شَاطِئِ النِّيل .

وَكَانَ يَتَنَقَّلُ مِنْ قَصرٍ إلى قَصْرٍ ، وَيَتَنَزَّهُ عَلَى شَاطِئِ النِّيل .

وَكَانَ يَوْمًا جَالِسًا عَلَى شَاطِئِ النِّيلِ يَتَنَزَّهُ ، وَيَرَى إِلَى النَّهْرِ يَجْرِي تَحْتَ رِجْلَيهِ .

وَكَانَتْ مَعَهُ مَلَكَةُ مِصْرَ تَتَنَزَّهُ مَعَ الْمَلِكَ .

وَتَرَى إِلَى النِّيل يَجْرِي وَبَيْنَمَا هُمَا يَتَنَزَّهَانِ ، إِذْ وَقَعَ بَصَرُهُمَا عَلى صُنْدُوقٍ تَلْعَبُ بِهِ أَمْوَاجُ النِّيلِ كَأَنَّمَا تُقَبِّلُهُ .

هَلْ تَرَى يَا سَيِّدِي ذَلِكَ الصَّنْدُوقَ ؟

أَيْنَ الصَّنْدُوقُ فِي النِّيلِ ؟ إِنَّمَا هِي خَشَبَةٌ سَقَطَتْ فِي النِّيلِ .

لَا يَا سَيِّدِي إِنَّمَا هُو صَنْدُوقٌ !

وَقَرُبَ الصَّنْدُوقُ ، فَقَالَ النَّاسُ : نَعَمُ هَذَا صَنْدُوقٌ .

وَأَمَرَ المِلكُ أَحَدَ الْخَدَمِ ، وَقَالَ : إِلَيْكَ هَذَا الصُّنْدُوقَ .

وَذَهَبَ الْخَادِمُ وَأَخْرَجَ الصُّنْدُوقَ .

وَفُتِحَ الصُّنْدُوق فَإِذَا فِيه غُلَامٌ جَمِيلٌ يَبْتَسِمُ .

وَتَحَيَّرَ النَّاسُ ، كُلٌّ يَأْخُذُهُ وَيَرَاهُ .

وَتَحَيَّرَ فِرْعَوْنُ وَرَآهْ .

قَالَ بَعْضُ الْخَدَمِ : إِنَّ هَذَا الْغُلَامَ إِسْرَائِيلِيٌّ وَلَابُدَّ لِلْمَلِكِ أَنْ يَذْبَحَهُ .

وَرَأَتْهُ الْمَلِكَةُ وَدَخَلَ حُبُّهُ فِي قَلْبِهَا ، فَضَمَّتْهُ إِلى صَدْرِهَا وَقَبَّلَتْهُ .

وَشَفِعَتْ لَهُ عِنْدَ الْمَلِكِ ، وَقَالَتْ : ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص:٩] .

وَهَكَذَا دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ قَصْرَ فِرْعَوْنَ ، وَعَاشَ عَلَى رَغْمِ فِرْعَوْنَ وَشُرْطَتِهِ .

وَلَمْ يَهْتَدِ الشُّرْطَةُ إِلَى هذَا الْمَوْلُودِ الإِسْرَائِيلِيِّ ، وَلَهُمْ عُيُونُ الْغُرَابِ وَشَامَّةُ النَّمْلِ .

وَأَرَادَ الله أَنْ يُرَبِّي فِرْعَوْنُ « عَدُوَّ الأَطْفَال » طِفْلًا يَذْهَبُ مُلْكَهُ عَلَى يَدِهِ .

مِسْكِينٌ فِرْعَوْنُ ، لَقَدْ أَخْطَأَ فِي شَأْن مُوسَى ، وَقَدْ أَخْطَأَ مَعَهُ وَزِيرُه هَامَانُ وَجُنُودُه .

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص:٨] .

٩ـ من يرضع الطفل؟!

وَكَانَ الطِّفْلُ الْجَدِيدُ ، وَكَانَ الطِّفْلُ الْجَمِيلُ لُعْبَةَ الْقَصْرِ وَلَهْوَ الدَّارِ .

كُلٌّ يَأْخُذُهُ وَيُقَبِّلُهُ ، وَكُلٌّ يُحِبُّه وَيَمْدَحُهُ ؛ لأَنَّ الْمَلِكَةَ تُحِبُّهُ حُبًا عَظِيمًا .

فَكَيْفَ لَا تُحِبُّهُ سَيِّدَاتُ الْقَصْرِ ، وَكَيْفَ لَا يُحِبَّهُ خَدَمُ الْقَصْرِ .

وَكُلٌّ يَأْخُذُهُ وَيُقَبِلُهُ ، لأَنَّ الطِّفْلَ جَمِيلٌ .

وَطَلَبتْ الْمَلِكَةُ مُرْضِعًا تُرْضِعُ الطِّفْلَ ، وَجَاءَتْ وَأَخَذَتِ الطِّفْلَ ، وَلَكِنَّ الطِّفْلَ يَبْكِي وَيَأْبَى .

وَطَلَبتَ الْمَلِكَةُ مُرْضِعًا أُخْرَى ، وَحَضَرتْ وَأَخَذَتِ الطِّفْلَ ، وَلَكِنَّ الطِّفْلَ يَبْكِي وَيَأْبَى .

وَثَالِثَةً وَرَابِعَةً وَخَامِسةً وَلَكِنَّ الطِّفْلَ يَبْكِي وَيَأْبَى .

عَجَبًا ، لِماذا لَا يَرْتَضِعُ الطِّفْلُ ، لأيِّ شَيْءٍ يَبْكِي ؟

اجْتَهَدِتْ الْمَرَاضِعُ أَنْ تَرْضِعَ الطِّفْلَ لِتُسُرَّ الْمَلِكَةَ وَتَنَالَ مِنْهَا جَائِزةً .

وَلَكِنَّ الله حَرَّم عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ .

وَأَصْبَحَ الطِّفْلُ حَدِيثَ الْقَصْرِ وَشُغْل الدَّارِ .

هَلْ رَأَيْتِ يَا أُخْتي الطِّفْلَ الْجَدِيدَ ؟

نَعَمْ قد رَأَيْتُهُ ، طِفْلٌ جَمِيلٌ جِدًا .

وَلَكِنَّهُ طِفْلٌ غَريبٌ لَيْسَ كَالأطفَالِ ، إِنَّهُ لَا يَرْتَضِعُ .

وَإِذَا أَخَذَتْهُ مُرْضِعٌ يَبْكِي وَيَأْبَى أَنْ يَرْتَضِعَ ، مِسْكِينٌ كَيْفَ يَعِيشُ ؟ إِنَّهُ يَمُوت .

نَعَمْ قَدْ مَضَى عَلَيْهِ أَيَّامٌ وَلَمْ يَرْتَضِعْ .

١٠ـ في حجر أمه

وَقَالتِ الأُمُّ الْحَنُونُ لأُخْتِ مُوسى :

اذْهَبي يَا بِنْتِي وَانْظُري أَخَاكِ لَعَلَّهُ حَيٌّ .

إِنَّ الله قَدْ وَعَدَنِي أَنَّهُ يَرُدُّ الطِّفْلَ إِلَيَّ وَأَنَّهُ يَحْفَظُهُ .

وَذَهَبَتْ أُخْتُ مُوسىَ تَبْحَثُ عَنْ أَخِيهَا .

وَسَمِعتِ النَّاسَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ طِفْلٍ جَمِيلٍ فِي قَصْرِ الْمَلِكِ .

ذَهَبَتِ السَّيِّدَةْ وَوَقَفَتْ تَسْمَعُ حَدِيثَ النِّساءِ فِي الْقَصْرِ .

هَلْ جَاءَتِ المرْضعُ الَّتي طَلَبَتْهَا الْمَلِكَةُ مِنْ أَسْوَانَ ؟

نَعَمْ يَا سَيِّدَتي ، وَلَكِنَّ الطِّفْلَ أَبَى أَيْضًا وَلَمْ يَرْتَضِعْ .

يَا سَلَامُ ! مَا شَأْنُ هَذَا الطِّفْلُ ؟ لَعَلَّ هذِهِ هِي السَّادِسَةُ الَّتي جَرَّبَتَها الملَكَةُ .

نَعَمْ وَيَقُولونَ : إِنَّها مرضع نَظيفَةٌ جِدًا وَكُلٌّ يَرْتَضِعُ مِنْهَا .

سَمِعَتْ أُخْتُ مُوسى هذَا الْكَلَامَ وَقَالتْ بِأَدَبٍ وَلُطْفٍ :

أَنَا أَعْرِفُ امْرَأَةً فِي الْبَلَدِ ، لَابُدَّ أَنْ يَرْتَضِعَ مِنْهَا الطِّفْلُ .

قَالَتْ امْرَأَةُ : أَنَا لا أُصَدِّقُ قَدْ جَرَّبْنَا سِتَّ مَرَاضِعَ وَلَكِنَّ لَمْ يَرْتَضِعْ .

قَالَتْ أُخْرى : وَلِمَاذَا لَا نُجَرِّبُ السَّابِعَة ، مَاذَا عَلَيْنَا ؟

وَوَصَلَ الْخَبَرُ إِلَى الْمَلِكَةِ فَطَلَبَتِ الْجَارِيَةَ وَقَالَتْ :

« اذْهَبي وَخُذِي مَعَكِ هَذِهَ الْمَرْأَة » .

وَجَاءَتْ أُمُّ مُوسى ، وَجَاءَتْ خَادِمَة وَقَدَّمَت إِلَيْهَا مُوسى .

فَاعْتَنَقَ الطِّفْلُ الْمَرْأَةَ ، وَأَقْبَلَ يَرْتَضِعُ ، كَأَنَّهُ كَانَ مِنْهَا عَلَى مِيعادٍ .

وَلِمَاذَا لَا يَرْتَضِعُ وَهِي أُمُّهُ الحَنُونُ ؟!

وَلِمَاذَا لَا يَرْتَضِعُ وَهُوَ جَائِعٌ مُنْذُ ثلاثةِ أَيَّامٍ ؟!

وَعَجِبتِ الْمَلِكَةُ وَعَجِبَ أَهْلُ الْقَصْرِ ، وَارْتَابَ فِرْعَوْن وَقَالَ : لِمَاذَا قَبِلَ هذا الطِّفْلُ هذِهِ الْمَرْأَةُ فَهَلْ هِي أُمَّهُ ؟

قَالَتْ أُمُّ مُوسى : يَا سَيِّدِي أَنَا امْرَأَةٌ طَيِّبَةُ الرِّيحِ ، طَيِّبَةُ اللَّبَن كُلُّ طِفْلٍ يَقْبَلُني .

وَسَكَتَ فِرْعَوْنُ وَأجرى عَلَيْهَا رِزْقًا .

وَرَجَعَتْ أُمُّ مُوسى إِلى بَيتِهَا وَفي حِجْرِهَا مُوسى .

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص:١٣] .

***

١١ـ إلى قصر فرعون !

وَلَمَّا أَتَمَّتْ أُمُّ مُوسى رَضَاعَتَهُ ، رَدَّتْهُ إِلى الْقَصْرِ .

وَنَشَأَ مُوسى فِي قَصْرِ الْمَلِكِ كَمَا يَنْشَأُ أَبْنَاءُ الْمُلُوكِ .

وَهَكَذَا زَالتْ مِنْ قَلْبِ مُوسى ، مَهَابَةُ الْمُلُوكِ وَالأغْنِياءِ .

وَرَأَى مُوسى بِعَيْنَيْهِ كَيْف يَنْعَمُ فِرْعَونُ وَأَهْلُهُ .

وَكَيْفَ يَشْقَى بَنُو إِسْرَائيلَ ، لِيَنْعَمَ فِرْعَوْنَ وَأَهْلُهُ .

وَكَيْفَ يَجُوعُ بَنُو إِسْرَائيلَ لِتَشْبَعَ دَوَابُّ فِرْعَوْنَ .

وَكَيْفَ يَعَامِلُونَ بَنِي إِسْرَائيلَ مَعَامَلَةَ الْحَمِيرِ وَالْدَّوَابِّ .

وَكَيْفَ يَسْتَخْدِمُونَهُمْ وَيَسُومُونَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ .

وَكَانَ مُوسى يَرَى ذَلِكَ صَبَاحَ مَساءً وَيَسْكُتُ .

وَلكن كَانَ مُوسىَ يَغِيظُهُ ذَلِكَ .

وَكَيْفَ لا يَغِيظُهُ إِهَانَةُ قَوْمِهِ وَأُسْرَتِهِ .

وَهُمْ أَبْنَاءُ الأَنْبِياءِ ، وَهُمْ أَبْنَاءُ الْكِرَام .

وَمَا ذَنْبُ بَني إِسْرَائِيلَ ، إِلا أَنَّهُمْ لَيْسُوا أَقْبَاطًا ؟!

إِلا أَنَّهُمْ مِنْ كَنْعَانَ ؟!

هَذَا لَيسَ بِذَنْبٍ ! هَذَا لَيسَ بِذَنْبٍ !

***

١٢ـ الضربة القاضية

وَلَمَّا كَانَ مُوسى شَابًا قَوِيًا آتَاهُ الله حُكْمًا وَعِلْمًا .

وَكَانَ مُوسى يُبغِضُ الظَّالِمينَ ويكرْهُهُمْ ، وَيُحِبُّ الضُّعَفَاءَ والمظْلُومِينَ ، وَيَنْصُرُهُمْ وَكَذلِكَ كُلُّ نَبِيٍّ .

وَدَخَلَ مُوسى مَدِينَةَ فِرْعَوْنَ مَرَّةً وَالنَّاسُ في لَهْوٍ وَشُغْلٍ .

وَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذَا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ وَهذَا مِنَ الأَقْباطِ .

أَعْداءِ بَني إِسْرَائيلَ .

فَصَرَخَ الإِسْرَائيليُّ ، وَنَادَى مُوسى لِنَصْرِهِ وَشَكَا الْقِبْطِيَّ .

وَغَضَبَ مُوسى فَضَرَبَ الْقِبْطِيَّ ، فَكَانَتِ الْقَاضِيةَ .

وَمَاتَ الْقِبْطِيُّ وَنَدِمَ مُوسى جِدًا ، وَعَرَفَ أَنَّ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ .

فَتَابَ مُوسى إلى الله وأَنَابَ ، وَكذَلِكَ كُلُّ نَبِيٍّ .

﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٥] .

وَتَابَ الله عَلَى مُوسَى ؛ لأَنَّ مُوسى لم يَقْصِدْ أَنْ يَقْتُلَ الْقِبْطِيَّ ، بَلْ ضَرَبَهُ وَلَكِنَّها كَانَتِ الْقَاضِيةَ .

وَحَمِدَ الله مُوسى وَقَالَ : إِنَّ الله قَدْ أَنْعَمَ عَلَيَّ وَغَفَرَ لِي : ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص:١٧] .

وَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائفًا يَترقَّبُ وَيَحْذَرْ مَتَى تَجِيئُهُ شُرْطَةُ فِرْعَوْنَ ، وَلهُمْ عُيُونُ الغُرَابِ وَشَامَّةُ النَّمْلِ .

وَأَصْبَحَ خَائِفًا يَترَقَّبُ متى تَجِيئُهُ الشُّرْطَةِ ، وَيَأْخُذُونَهُ إِلَى الْجَبَّارِ .

وَرَأَى الشُّرْطَةُ قَتِيلًا قِبْطِيًّا مِن خَدَمِ فِرْعَوْنَ ، فَفَتَّشُوا عَنِ الْقَاتِلِ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَهْتَدُوا إِلَيْه .

وَمَنْ يَدُلُّهُمْ عَلَى الْقَاتِلِ وَلَا يَعْلَمُهُ إِلَّا مُوسَى والإِسْرَائِيلِيُّ ؟!

وَأَصْبَحَ الْقَتِيلُ حَدِيثَ الْبَلَدِ وَشُغْلَ الْمَدِينَةِ ، كُلٌّ يَتَحَدَّثُ عَنْهُ وَلَا يَعْلَمُ قَاتِلَهُ .

وَغَضِبَ فِرْعَوْنُ وَقَالَ لِلشُّرْطَةِ : لابُدَّ أَن تُفَتِّشُوا عَنِ الْقَاتِلِ .

١٣- يظهر السر

وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِي يَرَى مُوسى ذَلِكَ الإِسْرَائِيلِيَّ فِي قِتَالٍ وَخِصَامٍ مَعَ قِبْطِيٍّ آخَر .

وَمَا اسْتَحَى الإِسْرَائِيلِيُّ بَلْ صَرَخَ وَنَادَى مُوسَى لِنُصْرَتِهِ .

قَالَ مُوسى : إِنَّكَ رَجُلٌ وَقِحٌ ، أَلَا تَزَالُ فِي قِتَالٍ وَجِدَالٍ مَعَ النَّاسِ ، وَلا تَزَالُ تَصْرُخُ وَتُنادِيني .

أَلا أَزَالُ أَنْصُرُكَ وَأُسَاعِدُكَ : ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٨] .

وَلَكِنْ أَرَادَ مُوسى أَنْ يُؤَدِّبَ الْقِبْطِيَّ قَلِيلًا وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمَا .

وَرَأَى الإِسْرَائِيلِيُّ غَضَبَ مُوسى وَسَمِعَ مَلامَه .

وَخَافَ أَنْ يَضْرِبَهُ مُوسى فتكون الْقَاضِيَةَ ، كَمَا ضَرَبَ الْقِبْطِيّ فَكَانَتْ الْقَاضِيَةَ .

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ

وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص:١٩] .

هُنَالِكَ عَرَفَ الْقِبْطِيُّ أَنَّ مُوسى هُوَ قَاتِلُ أَمسْ .

وَذَهَبَ القِبطِيُّ ، وأَخبر الشُّرْطَة بِأَنَّ مُوسى هُوَ الْقَاتِلُ .

وَوَصَلَ الْخَبَرُ إِلى فِرْعَوْنَ فَغَضِبَ وَقَالَ :

أَذَلِكَ الْفَتَى ربيبُ الْقَصْرِ وَرَضِيعُ الْمُلْكِ ؟

وَلَكِنَّ الله أَرَادَ أَنْ يَنْجِي مُوسى مِنْ شَرِّ فِرْعَوْنَ وَشُرْطَتِهِ .

إِنَّ مُوسى لَمْ يَقْصِدَ أَنْ يَقْتُلَ الْقِبْطِيَّ بَلْ ضَرَبَهُ ضَرْبَةً كَانتْ الْقَاضِيَةَ .

وَلَكِنَّ فِرْعَوْنَ وَشُرْطَتَهُ لا يُسَلِّمُونَ ذَلِكَ ، ولَا يَقْبَلُونَ لِمُوسى عُذْرًا .

إِنَّ الله قَدْ قَدَّرَ أَنْ يَذْهَبَ مُلْكُ فِرْعَوْنَ عَلَى يَد مُوسى ، إِنَّ الله قَدْ قَدَّرَ أَنْ يَكُونَ خَلَاصُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى يَدِ مُوسى .

إِنَّ الله قَدْ قَدَّرَ أَنْ يُخرِجَ مُوسى النَّاسَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلى عِبَادَةِ الله تَعَالى .

وَكَيْفَ يُكُونُ ذَلِكَ إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ يَدُ الشُّرْطَةِ الظَّالِمين .

وَكَانَ رِجَالُ فِرْعَوْنَ وَوزَرَاؤُهُ يَتَشَاوَرُونَ وَيَعْزِمُونَ عَلَى قَتْلِ مُوسى .

وَكَانَ رَجُلٌ يَسْمَعُ كُلَّ ذَلِكَ وَيَعْرِفُهُ ، فَجَاءَ إِلَى مُوسى وَأَخْبَرَهُ بِالْخَبَرِ وَقَالَ :

﴿ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [القصص:٢٠] .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص:٢١] .

***

١٤ـ من مصر إلى مدين

وَلَكِنْ إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ مُوسى ، وَمِصْرُ كُلُّهَا مَمْلَكَةٌ لِفِرْعَوْنَ ؟!

وَشُرْطَةُ فِرْعَوْنَ بِالْمِرْصَادِ ، وَلَهُمْ عُيُونُ الْغُرَابِ وَشَامَّةُ النَّمْلِ .

أَلْهَمَ الله مُوسى أَنْ يَذْهَبَ إِلى مَدْيَنَ الْبَلَدِ الْعَرَبي ، حَيْثُ لا تَصِلُ إِلَيْهِ يَدُ فِرْعَوْنَ .

إِنَّ مَدْيَنَ بَادِيَةٌ ، وَقُرىً لَيْسَ فِيهَا مَدَنِيَّةُ مَصْرَ .

وَلَيْسَ فِيهَا قُصُورُ مِصْرَ ، وَأَسْوَاقُ مِصْرَ .

وَلَكِنَّهَا بِلادٌ سَعِيدَةٌ ؛ لأَنَّهَا بَعِيدَةٌ مِنْ فِرْعَوْنَ .

وَإِنَّهَا سَعِيدَةٌ ؛ لأَنَّهَا بِلَادٌ حُرَّةٌ لَيْسَتْ تَحْتَ حُكْمِ فِرْعَوْنَ .

يَا حَبَّذَا الْبَدَاوَةُ مَعَ الْحُرِّيَةِ وَالْعَدْلِ .

وَيَا شَقَاوَةَ الْمَدَنِيَّةِ مَعَ الْعُبُودِيَّةِ وَالذُّلِّ .

هُنَالِكَ يُصْبِحُ كُلُّ أَحَدٍ لا يَخَافُ سَطْوَةَ فِرْعَوْنَ وَقَهْرَه .

وَهُنَالِكَ يَبِيتُ كُلُّ أَحَدٍ لا يَخَافُ شُرْطَةَ فِرْعَوْنَ ، وَشَرَّهُ هُنَالِكَ لا تُذْبَحُ الأَبْنَاءُ .

قَصَدَ مُوسى مَدْيَنَ ، وَخَرَجَ من مِصْرَ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ، أَيَتْبَعُهُ أَحَدٌ وَلَكِنْ نَامَ عَنْهُ الشُّرْطَةُ .

خَرَجَ مُوسى عَلَى اسْمِ الله يَدْعُو الله ، وَيَطْلُبُ مِنْهُ النَّصْرَ .

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص:٢٢] .

١٥ـ في مدين

وَصَلَ مُوسى إِلى مَدْيَنَ ، لا يَعْرِفُ أَحَدًا ، وَلاَ يَعْرِفُهُ أَحَدٌ .

فَمنْ يَأْوِي إِلَيْهِ في اللَّيلِ ، وَأَيْنَ يَبيتُ ؟

تَحَيَّرَ مُوسى ، وَلَكِنَّهُ أَيْقَنَ أَنَّ الله لا يُضِيعُهُ .

وَكَانَ هُنَالِكَ بِئْرٌ يَسْقِي عَلَيْهَا النَّاسُ غَنَمَهُمْ وَمَاشِيَتَهُمْ .

وَوَجَدَ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ غَنَمَهُمَا ، وَتَنْتَظِرَانِ أَنْ يَسْقِي النَّاسُ فَتَسْقِيَا .

رَأَى مُوسى ذَلِكَ ، وَفِي قَلْبِهِ حَنَانُ الْكَرِيمِ وَشَفَقَةُ الأَبِ الرَّحِيمِ .

فَقَالَ : لِمَاذَا لا تَسْقِيَانِ ؟

قَالَتَا : لا يُمْكِنُ لَنَا أَنْ نَسْقِي غَنَمَنَا حَتَّى يَسْقِي النَّاسُ ؛ لأَنَّهُمْ أَقْوِيَاءُ وَنَحْنُ ضُعَفَاءُ ، ولأَنَّهُمْ رِجَالٌ وَنَحْنُ إِنَاثٌ .

وَكَأَنَّمَا عَرَفَتَا أَنَّ مُوسى سَيَسْأَلُهُمَا : فَلِمَاذا لا يَسْقِي أَحَدٌ مِنْ رِجَالِ بَيْتِكُنَّ ؟

فَسَبَقَتَا وَقَالَتَا : ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص:٢٣] .

وَهَاجَ في مُوسى حَنَانُ الْكَرِيمِ ، وَسَقَى لَهُمَا وَذَهَبَتَا .

وَأَيْنَ يَذْهَبُ مُوسى الآنَ ؟!

وَإِلى أَيْنَ يَأْوِي في اللَّيْلِ وَأَيْنَ يَبِيتُ ؟!

إِنَّهُ لا يَعْرِفُ أَحَدًا ، وَلا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ !

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤] .

***

١٦ـ الطلب

وَوَصَلَتِ الْجَارِيَتَانِ إِلى الْبَيْتِ قَبْلَ الْمِيعَادِ ، فَتَعَجَّبَ أَبُوهُمَا وَسَأَلَهُمَا عَن السَّبَب .

وَقَالَ لَهُمَا : مَا أَعْجَلَكُمَا يَا بِنْتَيَّ ، وَكَيْفَ وَصَلْتُمَا الْيَوْمَ قَبْلَ الْمِيعَادِ ؟

قَالَتِ السَّيِّدَتَانِ : قَدْ قَدَّرَ الله لَنَا رَجُلًا كَرِيمًا سَقَى لَنَا .

تَعَجَّبَ الشَّيْخُ وَعَرَفَ أَنَّهُ رَجُلٌ غَرِيبٌ ؛ لأَنَّ أَحَدًا لَمْ يَرْحَمْهُنَّ يَوْمًا .

قَالَ الشَّيْخُ : وَأَيْنَ تَرَكْتُما الرَّجُلَ ؟

قَالَتَا : تَرَكْنَاهُ فِي مَكَانِهِ ، رَجُلٌ غَرِيبٌ لَيس لهُ مَأْوَى .

قَالَ الشَّيْخُ : مَا أَحْسَنْتُما يَا بِنْتَيَّ ، رَجُلٌ غَرِيبٌ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْنَا ، وَلَيْسَ لَهُ مَأْوَى فِي الْبَلَدِ .

إِلى مَنْ يَأْوِي فِي اللَّيْلِ ، وَأَيْنَ يَبِيتُ ؟!

إِنَّ لَهُ عَلَيْنَا حَقَّ الضِّيَافَةِ ، وَإِنَّ لَهُ عَلَيْنَا حَقَّ الإِحسَانِ .

لِتَذْهَبْ إِحْدَاكُمَا وَتَأْخُذْهُ مَعَهَا .

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ [القصص:٢٤] .

وَعَرَفَ مُوسى أَنَّ الله قَدْ أَجَابَ دُعَاءَهُ وَبَوَّأَ لَهُ ، فَمَا أَبَى .

وَخَرَجَ مُوسى أَمَامَهَا لِئَلَّا يَقَعَ نَظَرُهُ عَلَيْهَا ، وَمَشى مُوسى مَشْيَ الْكِرَامِ .

وَلَمَّا وَصَلَ إِلى الشَّيْخِ سَأَلَهُ عَن اسْمِهِ وَوَطَنِهِ وَخَبَرَه .

وَأَخْبَرَ مُوسى خَبَرَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَه .

سَمِعَ الشَّيْخُ كُلَّ ذَلكَ بِصْبرٍ وَهُدُوءٍ ، وَلَمَّا انْتَهى مُوسى مِنْ قِصَّتِهِ .

﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:٢٥] .

١٧- الزواج

وَأَقَامَ مُوسى عِنْدَهُمْ مَقَامَ ضَيْفٍ كَرِيمٍ ، بَلْ حَلَّ مِنْهُمْ مَحَلَّ الْوَلَدِ الْعَزِيزِ .

وَقَالَتْ سَيِّدَةٌ لِوَالِدِهَا يَوْمًا فِي بَسَاطَةٍ وَطَهَارَةٍ :

﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦] .

قَالَ الشَّيْخُ : وَمَا عِلْمُكِ بِقُوَّتِهِ وَأَمَانَتِهِ يَا بِنْتِي ؟

قَالَتْ : أَمَّا قُوَّتُهُ فلأنه رَفَعَ الْغِطَاءَ عَنِ الْبِئْرِ وَحْدَهُ ، ولا يَرْفَعُهُ إِلَّا جَمَاعَةٌ .

وَأَمَّا أَمَانَتُهُ يَا أَبَتِ ، فلأنه مَشَى أَمَامي لا يَنْظُرُ إِلَيَّ طُوال الطَّرِيقِ .

وَلابُدَّ للأَجِير وَلابُدَّ لِلْخَادِمِ أَنْ يَكُونَ قَوِيًّا أَمِينًا .

فَإِذَا لَمْ يَكُنْ قَوِيًّا ضَعُفَ عَنِ الْعَمَلِ .

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ أَمِينًا لَمْ تَنْفَعْنَا قُوَّتُهُ مَعَ خِيَانَتِهِ .

وَوَافَقَ كَلامُ السَّيِّدَةِ هَوىً فِي قَلْبِ الشَّيْخِ ، وَلَكِنَّهُ فَكَّرَ فِي الْمَسْأَلَةِ كَوَالِدٍ .

وَفَكَّرَ فِي الْمَسْأَلَةِ كَشَيْخٍ عَاقِلٍ .

قَالَ الشَّيْخُ فِي نَفْسِهِ : مَنْ ذَا يَكُونَ أَحَقَّ مِنْ هَذَا الْفَتَى بِأَنْ يَكُونَ صِهْرًا لي .

وَأَيْنَ أَجِدُ فِي الدُّنْيَا أَفْضَلَ مِنْ هَذَا الشَّابِّ ؟!

أَمَّا فِي مَدْيَنَ فَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا أَهْلًا لِذَلِكَ !

وَلَعَلَّ الله قَدْ سَاقَ إِلَيَّ هَذَا الْفَتَى ، لِيَكُونَ لِي صِهْرًا وَوَزِيرًا .

فَقَالَ فِي وَقَارٍ وَشَفَقَةٍ وَحِكْمَةٍ :

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ .

[القصص:٢٧]

وَهَذَا هُوَ صِدَاقُكَ ، أَمَّا هَذِهِ السَّنَواتُ الثَّمَانِي فَلا بُدَّ مِنْهَا .

﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص:٢٧] .

خَافَ الشَّيْخُ أَنْ يَذْهَبَ الشَّابُّ بِبِنْتِهِ وَيَبْقَى وَحِيدًا .

وَرَأَى الشَّيْخُ أَنْ يُجَرِّبَ الشَّابَّ أَيْضًا ، حَتَّى إِذَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ وَدَّعَهُ .

وَافَقَ مُوسى عَلَى ذَلِكَ ، وَرَأَى أَن هَذَا مِنَ الله ، وَأَنَّ الله سَيُبَارِكُ فِي ذَلِكَ .

إِنَّ الله قَدْ سَاقَهُ إِلَى مَدْيَنَ وَأَرْسَلَهُ إِلى الشَّيْخِ وَأَلْقَى فِي قَلْبِهِ حَنَانًا وَحُبًّا .

فَقَالَ : ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ﴾ [القصص:٢٨] .

ولَكِنْ أَرَادَ مُوسى ـ بِحِكْمَتِهِ وَعَقْلِهِ ـ أَنْ يَحْفَظَ لَهُ حَقَّ الْخِيَارِ لَعَلَّهُ يَسْأَمُ فَقَالَ : ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ .

[القصص:٢٨]

١٨ـ إلى مصر

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ [القصص:٢٩] .

وَوَدَّعَ الشَّيْخَ ، وَوَدَّعَهُ الشَّيْخُ وَدَعَا لَهُ : عَلَى بَرَكَةِ الله يَا وَلَدِي ! فِي أَمَانِ الله يَا بِنْتِي !

وَسَافَرَ موسى بِأَهْلِهِ ، وَاللَّيْلُ كُلُّهُ بَرْدٌ وَظَلَام .

وَلَكِنْ أَيْنَ النَّارُ فِي الصَّحرَاءِ ؟

وَمَاذَا يَصْنَعَانِ إِذَا لَمْ يَجِدَ نَارًا يَصْطَلِيَانِ بِهَا ، وَلَمْ يَجِدَا نُورًا يَهْتَدُونَ بِهِ ؟!

وَبَيْنَمَا هُمَا يَسِيرَانِ وَمُوسى يَبْحَثُ عَنْ نَارٍ .

﴿ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [القصص:٢٩] .

وَسَارَ موسى قِبَلَ النَّارِ عَلَى جَنَاحِ الشَّوْقِ .

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ .

[القصص:٣٠]

هَنَالِكَ كَلَّمَ الله مُوسى وَأَوْحَى إِلَيْهِ .

﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ [القصص:٢٠] .

وَكَانَ فِي يَدِ مُوسى عَصًا كَانَ يَحْمِلُهَا وَيَسْتَعِينُ بِهَا فَقَالَ الله تَعَالى :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:١٧] .

وَأَجَابَ مُوسَى فِي بَسَاطَةٍ وَسَذَاجةٍ :

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ ﴾ [طه:١٨] .

وَأَخَذَ مُوسى يَعُدُّ فَوَائِدَ هِذِهِ الْعَصَا في تَفْصِيلٍ ؛ لأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُكَلِّمَ الله وَيَكُونَ حَدِيثُه طَوِيلًا .

﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ .

[طه:١٨]

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ [طه:١٩] .

﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه:٢٠] .

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ [طه:٢١] .

وَمَنَحَ مُوسى آيَةً ثَانِيَةً ، هِيَ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ فَقَالَ :

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ [طه:٢٢] .

١٩ـ اذهب إلى فرعون إنه طغى

وَأَمَرَ الله مُوسى بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنْ يَشْرَعَ عَمَلَهُ الَّذِي خَلَقَهُ لأَجْلِهِ .

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا في الأرض ، إِنَّ فِرْعَوْنَ أَفْسَدَ في الأرض .

إِنَّ قَوْمَ فِرْعَوْنَ كَفَروا بِالله ، إِنَّ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَفْسَدُوا في أَرْضِ الله .

إِنَّ الله لا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، إِنَّ الله لا يُحِبُّ الفَسَادَ في الأرض .

فَأَرَادَ الله أَنْ يَذْهَبَ مُوسى إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ .

لَكِنْ كَيْفَ يَذْهَبُ مُوسى إِلى فِرْعَوْنَ وَكَيْفَ يُوَاجِهُ الْجَبَّارَ .

وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ الْقِبطِيَّ بِالأَمْسِ وَمَا أَمْسُ بِبَعيد !

وَهُوَ الَّذي خَرَجَ مِنْ مَصْرَ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ، وَيَعْرِفُهُ الشُّرْطَةُ وَيَعْرِفُهُ أَهْلُ الْقَصْرِ .

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [طه:٤٠] .

وَذَكَرَ مُوسى أَنَّ فِي لِسَانِهِ حُبْسَةً .

وَلَكِنَّ الله كَانَ يَعْرِفُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُرِيدُ أَنْ يَذْهَبَ مُوسى رَغْمَ ذَلِكَ كُلِّهِ .

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ .

[الشعراء:١١]

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾ [الشعراء:١٢، ١٣] .

﴿ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء:١٤] .

﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء:١٦] .

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:١٧] .

﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ .

وَأَوْصَى اللهُ مُوسى ، وَهَارُونَ بِاللِّينِ وَالرِّفْقِ مَعَ فِرْعَوْنَ .

إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ مَعَ أَعْدَائِهِ إِلى حَدٍّ فَقَالَ :

﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [الشعراء:٢٠] .

٢٠ـ أمام فرعون

وَجَاءَ مُوسى وَهَارُونُ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَامَا في مَجْلِسِهِ يَدْعُوَانِهِ إِلى اللهِ .

وَغَضِبَ الْجَبَّارُ مِنْ جَرَاءَةِ مُوسى ، وَقَالَ في عُلُوٍّ وَكِبْرٍ :

مَنْ تَكُونُ أَيُّهَا الشَّابُّ حَتَّى تَقُومَ في مَجْلِسي وَتَعظِني ، أَلَسْتَ ذَلِكَ الْغُلَامُ الَّذِي الْتَقَطْنَاهُ مِنَ الْبَحْرِ ؟!

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء:١٨] .

﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الشعراء:١٩] .

وَلَمْ يَغْضَبْ مُوسى ، وَلَنْ يَكْذِبْ وَلَمْ يَجْحَدْ وَلَمْ يَعْتَذِرْ بَلْ أَجَابَ فِي صَرَاحَةٍ وَوَقَارٍ :

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:٢٠، ٢١] .

وَقَالَ مُوسى : إِنَّكَ يَا فِرْعَوْنُ تَمُنَّ عَلَيَّ بِالتَّرْبِيَةِ ، وَلَكِنْ لا تَنْظُرُ لِمَاذَا وَقَعْتُ بِيَدِكَ وَكَيْفَ أَمْكَنَكَ أَنْ تُرَبِّيني ؟

إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَأْمُرْ بِقَتلِ الأطفال لَمَا أَلْقَتْني أُمِّي فِي النِّيلِ ، وَمَا وَقَعْتُ بِيَدِكَ .

وَهَلْ نِعْمَةٌ تُعَدُّ وَتُذْكَرُ فِي جَنْبِ ظُلْمِكَ وَقَسَاوَتِكَ ؟

إِنَّكَ عَامَلْتَ قَوْمِي ، كُلَّهُمْ مَعَامَلَةَ الْحَمِيرِ وَالدَّوابِّ .

وَكُنْتَ تَزْجُرُهُمْ زَجْرَ الْكِلابِ .

وَكُنْتَ تَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ .

فَأَيُّ فَضْلٍ لَكَ إِذَا كَفَلْتَ طِفْلًا مِنْهُمْ ؟!

وَذَلِكَ أَيْضًا عَنْ جَهْلٍ وَخَطَإٍ !

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٢٢] .

٢١ـ الدعوة إلى الله

وَعَجَزَ فِرْعَوْنُ وَلَمْ يَجِدْ جَوَابًا ، فَأَرَادَ أَنْ يَتَخَلَّصَ فَقَالَ :

﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣] الَّذِي أَسْمَعُكَ تَذْكُرُهُ ؟

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٤] .

غَضِبَ فِرْعَوْنُ مِنْ هَذَا الْجَوَابِ ، وَأَرَادَ أَنْ يَغْضَبَ أَهْلُ الْمَجْلِسِ وَيَتَعَجَّبُوا .

﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء:٢٥] .

وَلَمْ يَقْطَعْ مُوسى الْكَلَامَ بَلْ ضَرَبَ فِرْعَوْنَ ضَرْبَةً ثَانِيَةً .

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء:٢٦] .

وَاشْتَدَّ غَضَبُ فِرْعَوْنَ وَلَمْ يَصْبِرْ وَقَال :

﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء:٢٧] .

وَلَمْ يَقْطَعْ مُوسى الْكَلَامَ ، وَضَرَبَ فِرْعَوْنَ ضَرْبَةً ثَالِثَةً .

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء:٢٨] .

وَأَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يَشْغَلَ مُوسى عَنْ هَذَا المَوْضُوعِ المرِّ .

وَأَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يُثِيرَ غَضَبَ مَلَئِهِ .

فَقَالَ : ﴿ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ ؟! [طه:٥١] .

قَالَ فِرْعَوْنُ فِي نَفْسِهِ : إِذَا قَالَ مُوسى : إِنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ .

قُلْتُ : فَإِنَّهُمْ كَانوا يَعْبُدُونَ الأَصْنَامَ !

وَإِذَا قَالَ مُوسى : إِنَّهُمْ كَانُوا فِي ضَلالَةٍ وَسَفَاهَةٍ .

غَضِبَ أَهْلُ المَجْلِسِ وَقَالُوا : إِنَّ مُوسَى سَبَّ آبَاءَنَا .

وَلَكِنَ مُوسى كَانَ أَعْقَلَ مِنْ فِرْعَوْنَ ، وَكَانَ مُوسى عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ، فَقَال :

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه:٥٢] .

ثَمَّ أَنْشَأَ مُوسى يَقُولُ مَا كَانَ فِرْعَوْنُ يَفِرُّ مِنْهُ وَيَتَخَلَّصُ :

﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [طه:٥٢، ٥٣] .

وَتَحَيَّرَ فِرْعَوْنُ وَبُهِتَ وَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ فَقَالَ مَا تَقُولُهُ الملُوكُ كُلُّهُمْ إِذَا عَجَزُوا وَغَضِبُوا .

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩] .

٢٢ـ معجزات موسى

وَلَمَّا أَطْلَقَ فِرْعَوْنُ سَهْمَهُ ، أَرَادَ مُوسى أَنْ يَرْمِيَهُ بِسَهْمِ الله .

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ ؟! [الشعراء:٣٠] .

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء:٣١] .

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء:٣٢] .

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء:٣٣] .

وَوَجَدَ فِرْعَوْنُ مَقَالًا يَقُولُهُ لِجُلَسَائِه .

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء:٣٤] .

وَوَافَقَ أَهْلُ المَجْلِسَ : ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء:٣٤] .

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس:٧٧] .

وَرَمَى فِرْعَوْنُ مُوسى بِسَهْمٍ آخَرَ فَقَالَ : ﴿قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٧٨] .

وَأَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يُخَوِّفَ الْمَلأ مِنْ مُوسى فِعْلَ الْمُلُوكِ .

فَقَالَ : ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء:٣٥] .

أَشَارَ الْمَلأُ عَلَى الْمَلِكَ أَنْ يَجْمَعَ السَّحَرَةَ مِنْ مَمْلَكَتِهِ وَيرْمي مُوسى .

وَهَكَذَا كَانَ ، نُودِي فِي مَمْلَكَةِ مِصْرَ : « أَلَا من كان يعرف السحر فليحضر إلى الملك » .

وَاجْتَمَعَ السَّحْرَةُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ نَواحِي المَمْلَكَةِ .

وَكَانَ يَوْمُ الزِّينَةِ هُوَ الْمِيعَادَ .

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ [الشعراء:٣٩ــ ٤١] .

٢٣ـ إلى الميدان

وَتَرى النَّاسَ يَخْرُجُونَ مِنْ بُيُوتِهِمْ ضُحىً ! وَيَمْشُونَ إِلَى الْمَيْدَانِ أَفْوَاجًا .

وَيَمْشُونَ إِلَى الْمَيْدَانِ أَطْفَالًا ، وَشُبَّانًا وَشُيُوخًا ، وَرِجَالًا وَنِسَاءً .

وَلَمْ يَبْقَ فِي الْبَيْتِ إِلَّا مَرِيضٌ أَوْ عَاجِزٌ .

وَلَا تَسْمَعُ فِي الْمَطَرِيَّةِ [١] إِلَّا حَدِيثَ السِّحْرِ وَأَسْمَاءَ السَّحَرَةِ .

هَلْ جَاءَ سَاحِرُ أُسْوانِ [٢] الأَكْبَرُ أَيْضًا ؟

نَعَمْ وَسَاحِرُ الأُقْصُرِ [٣] وَسَاحِرُ الْجِيزَةِ [٤] الشَّهِيرُ !

مَاذَا تَرَى يَا أَخِي مَنْ يَغْلِبُ ؟

إِنَّ مِصْرَ قَدْ أَلْقَتْ أَفْلاذَ كَبَدَهَا تَرى يَغْلِبُهُمْ أَحَدٌ !

---

(١) قصبة مصر أيام الفراعنة .

(٢ ـ ٤) مدن مصر القديمة .

وَكَيْفَ يَغْلِبُهُمْ مُوسى وَأَخُوهُ وَأَيْنَ تَعَلَّمَا السِّحْر ؟

نَشَأَ فِي قَصْرِ المِلِكِ ، ثُمَّ خَرجَ مِنْ مِصْرَ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ وَكَانَ فِي مَدْيَنَ سِنِينَ .

فَأَيْنَ تَعَلَّمَا السِّحْرَ ؟

أَفِي مِصْرَ ؟ لا !

أَفِي مَدْيَنَ ؟ مَا سَمِعْنَا أَنَّ هُنَالِكَ فَنًّا !

وَجَاءَ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، وَهُمْ بَينَ يَأْسٍ وَرَجَاءٍ ، وَلَعَلَّ الْيَأْسَ أَغْلَبُ ، الله يَرْحَمُ ابْنَ عِمْرانَ !

الله يَنْصُرُ بَني إِسْرَائِيلَ !

وَجَاءَ السَّحَرَةُ وَأَقْبَلُوا بِخُيَلائِهِمْ وَفَخْرِهِمْ ، وَخَرَجُوا فِي ملابِسَ مُلَوَّنَةٍ ، وَخَرَجُوا يَحْمِلُونَ الْعِصيَّ وَالْحِبَالَ .

وَخَرَجُوا يَضْحَكُون وَيَمْرَحُونَ ، الْيَوْمَ يَوم الْفَنِّ !

الْيَوْمَ يَرَى الْمَلِكُ صَنِيعَنَا ، الْيَوْمَ يَرَى الْقَوْمُ فَضْلَنَا !

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ [الشعراء:٤١] .

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء:٤٢] .

وَهَذِهِ جَائِزَةُ المُلُوكِ ! وَهَذَا عَطَاءُ المُلُوكِ .

وَهَذَا الَّذي يُخْدَعُ بِهِ الرِّجَالُ ، وَهذَا الَّذي يُصَادُ بِهِ الأَبْطَالُ .

وَفِرِحَ السَّحَرَةُ بِمَوَاعِيدِ فِرْعَوْنَ .

***

٢٤ـ بين الحق والباطل

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ [الشعراء:٤٣] .

﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٤٤] .

وَرَأَى الناسُ عَجَبًا ، حَيَّاتٌ تَسْعَى في الميْدان ، وَدَهِشَ الناسُ وَتَراجَعُوا إلى الخَلْفِ وَهَتَفُوا : حَيَّاتٌ ! حَيَّاتٌ !

وَرَأَى مُوسى مَا رَأَى النَّاسُ وَتَعَجَّبَ .

﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ [الشعراء:٤٤] .

وَخَطَرَ في قَلب مُوسى خَاطِرُ خَوْفٍ !

وَلِمَاذَا لا يَخَافُ مُوسى ؟

هذا يوم الرِّهَانِ ! وَعِنْدَ الامْتِحَانِ يُكرَمُ الرَّجُل أَوْ يُهَانُ .

وَإِذَا غَلبَ السَّحَرَةُ ــ لَا قَدَّرَ الله ذلك .

وَإِذَا غُلبَ مُوسى ــ لا سَمَحَ الله بِذلِكَ .

فَمَاذَا يَكُونُ ؟ العِيَاذُ بالله !!

وَلَيْسَ غَلَبُ مُوسى غَلَبَ رَجُلٍ ، بَلْ هُوَ غَلَبُ دِينٍ أَمَامَ مَلَكٍ .

بَلْ هُوَ غَلَبُ حقٍّ أَمَامَ بَاطِلٍ .

لاَ قَدَّرَ الله ذَلِكَ ! لا سَمَحَ الله بِذَلِكَ !

وَلَكِنَّ الله شَجَّعَهُ وَقَالَ :

﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [طه:٦٨] .

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ .

[طه:٦٩]

﴿قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس:٨١، ٨٢] .

﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء:٤٥] .

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١١٨] .

وَدَهِشَ السَّحَرَةُ وَبُهِتُوا .

أي شَيءٍ هَذَا ؟ إِنَّا نَعْرِفُ السِّحْرَ وَأَصْلَهُ ، وَإِنَّا نَعْرِفُ السِّحْرَ وَأَنْوَاعَهُ .

وَنَحْنُ أَسَاتِذَةُ الْفَنِّ ! وَنَحْنُ أَئِمَّةُ الْفَنِّ .

هَذَا لَيس مِنَ السِّحْرِ ! هَذَا لَيْسَ مِنَ السِّحْرِ !

لَوْ كَانَ مِنَ السِّحْرِ لَضَرَبْنَا السِّحْرَ بِالسِّحْرِ ، وَقَرعْنَا الْفَنَّ بِالفَنِّ !

وَلَكِنِ اضمَحَل فَنُّنَا أَمامَ هذَا ، وَذَابَ كَمَا يَذُوبُ النَّدَى أَمَامَ الشَّمْسِ .

فَمِنْ أَيْنَ هَذَا ؟ هَذَا مِنَ الله !

اقْتَنَعَ السَّحَرَةُ بِأَنَّ مُوسى نَبِيٌّ ، وَأَنَّ الله قَدْ مَنَحَهُ مُعْجِزَةً فَصَرَخُوا وَهَتَفُوا :

﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الشعراء:٤٧، ٤٨] .

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه:٧٠] .

***

٢٥ـ وعيد فرعون

وَجُنَّ جُنُونُ فِرْعَوْنَ .

وَقَامَ فِرْعَوْنُ وَقَعَدَ وَبَرَقَ فِرْعَوْنُ ، وَرَعَدَ مِسْكِينٌ فِرْعَوْنُ وَقَعَ مَا لَمْ يَكُنْ يَرْجُوهُ .

إِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَهْزِمَ مُوسى بِالسَّحَرَةِ ، فَأَصْبَحَ السَّحَرَةُ جُنْدَ مُوسى .

إِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَصُدَّ النَّاسَ عَنْ مُوسى ، فَجَاءَ بِالسَّحَرَةِ فَإِذَا بِهِم أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ .

إِنَّ سِهَامَهُ ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ .

وَكَانَ فِرْعَوْنُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ مَلِكُ الْعُقُولِ ، كَمَا أَنَّهُ مِلِكُ الأَجْسَامِ .

وَأَنَّ لَهُ سُلْطَانًا عَلَى الْقُلوبِ ، كَمَا أَنَّ لَهُ سُلْطَانًا عَلَى الأَلْسِنَةِ .

وَلَيْسَ لأَحِدٍ فِي مِصْرَ أَنْ يَعْتَقِدَ شَيْئًا بشيءٍ إِلا بِإِذْنِهِ ، فَقَالَ فِي كِبْرٍ وَجَبَرُوتٍ :

﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ ؟!

وَرَمَاهُمْ فِرْعَوْنُ بِسَهْمٍ مِنْ سِهَامِ المُلُوكِ فَقَالَ :

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه:٧١] .

وَرَمَاهُمْ بِسَهْمٍ فَقَالَ :

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ .

[الأعراف:١٢٣]

وَرَمَاهُمْ بِسَهْمٍ ثَالِثٍ مَسْمُومٍ هُوَ السَّهْمُ الأَخِيرُ فِي كِنَانَةِ المُلُوكِ .

﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الشعراء:٤٩] .

وَتَلَقَّى المؤْمِنونَ السِّهَامَ كُلَّهَا بِجَنَّةِ الإيمَانِ وَالصَّبْرِ وَقَالوا :

﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٥٠] .

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٥١] .

وَقَالُوا في إِيمَانٍ وَحَمَاسَةٍ :

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٞ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه:٧٤] .

٢٦ـ سفاهة فرعون

وَاهْتَمَّ فِرْعَوْنُ بِأَمرِ مُوسى كَثِيرًا وَطَارَ نَوْمُهُ .

وَبَقِيَ فِرْعَوْنُ لا يَطِيبُ لَهُ طَعَامٌ وَلا شَرَابٌ .

وَأَثَارَ غَضَبَهُ الآخَرونَ أَيْضًا وَقَالُوا :

﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ ﴾ [الأعراف:١٢٧] ؟!

وَغَضِبَ فِرْعَوْنُ وَثَارَ .

﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف:١٢٧] .

وَأَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يَصُدَّ بَنِي إِسْرَائيلَ وَأَهْلَ مِصْرَ عَنْ مُوسى بِكُلِّ حِيلَةٍ .

وَنَادَى فِرْعَوْنُ في قَوْمِهِ قَالَ : ﴿ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الزخرف] ؟

﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٞ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف:٥٢] ؟

وَقَالَ فِرْعَوْنُ فِي رَزَانةٍ وَحِلْمٍ :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨] .

كَأَنَّهُ فَتَّشَ كَثِيرًا ، وَفَكَّرَ كَثِيرًا وَنَصَحَ لِقَوْمِهِ .

وَقَالَ فِي سَفَاهَةٍ وَجُنُونٍ :

﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص:٣٨] .

وَأَوْقَدَ هَامَانُ عَلَى الطِّينِ ، وَبَنَى صَرْحًا وَلَكِنْ إِلَى أَيْنَ ؟ تَعِبَ هَامَانُ وَتَعِبَ الْبَنَّاؤُون وَنَفِدَ الطِّين والآجُرُّ .

وَلَا يَزَالُ فِرْعَوْنُ بَعِيدًا لَمْ يَصِلْ إِلى السِّحَابِ فَضْلَا عَنِ الْقَمَرِ .

وَلَمْ يَصِلْ إِلى الْقَمَرِ فَضْلَا عَنِ الشَّمْسِ .

وَلَمْ يَصِلْ إِلى الشَّمْسِ ، فَضْلَا عَنِ الْكَواكِبِ .

وَلَمْ يَصِلْ إِلى الْكَواكِبِ فَضْلَا عَنِ السَّماءِ .

وَخَابَ فِرْعَوْنُ وَخَجِلَ ، وَعَجَزَ فِرْعَوْنُ وَقَعَدَ .

مِسْكِينٌ أَلا يَدْرِي أَنَّ الله « **خَلَقَ الأَرْضَ والسَّمَواتِ الْعُلى** » .

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طه:٦] .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ .

وَلَمْ يَجِدْ فِرْعَوْنُ حِيلَةً إِلَّا أَنْ يَقْتُلَ مُوسى ، وَحُجَّتُهُ أَنَّ مُوسى يُظْهِرُ فِي الأرض الْفَسَادَ .

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٨].

*****

قصص النبيين

للأطفال

القسم الثاني

تأليف
أبي الحسن على الحسني الندوي

١ـ نظرة على القصص السابقة

قرأتم قصة سيدنا إبراهيم وسيدنا يوسف ، وقرأتم قصة سيدنا نوح وسيدنا هود وسيدنا صالح ، قرأتم قصة سيدنا موسى في شيء من التفصيل والتطويل ، قرأتم كل ذلك بشوق ورغبة ، وإجلال وتقدير ، وحلت في نفوسكم وقلوبكم محل القصص الحبيبة الأثيرة ، ووعتها ذاكرتكم ، وذلت بها ألسنتكم ، وقد رآكم الناس تحكونها لإخوتكم الصغار ، وتردّدونها للأبوين ، والإخوة الكبار ، وأنتم تتذوقونها ، وقد تتحمّسون في حكايتها .

٢ـ قصة صراع بين الحق والباطل

ولا غرابة فإنها قصص شائقة مثيرة ، وإنّها قصة صراع بين الحق والباطل ، وبين العلم والجهل وبين النور والظلام ، وبين الإنسانية والوحشية ، وبين الجزم واليقين ، والظن والتخمين .

ثم إنها قصة انتصار للحق على الباطل ، والعلم على الجهل ، والضعيف على القوي ، والقليل على الكثير ، قصة فيها علم وحكمة وموعظة وذكرى ، وصدق الله العظيم :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

[يوسف:١١١]

***

قصة
مؤمن آل فرعون

١ـ مؤمن آل فرعون

وَلَمَّا أَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يَقْتُلَ مُوسى قَامَ رَجُلٌ مِنْ آل فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ وَقَالَ :

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر:٢٨] .

وَقَالَ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ : لِمَاذَا تَتَعَرَّضُونَ لِمُوسى وَلِمَاذَا تُؤْذُونَهُ ؟

إِذَا لَمْ تُؤْمنُوا بِهِ فَاتْرُكُوهُ وَشَأْنَهُ وَخَلُّوا سَبِيلَهُ .

﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ [غافر:٢٨] .

وَإِذَا آذَيْتُمُوهُ وَوَقَعْتُمْ بِهِ وَكَانَ نَبِيًّا فَلَكُمْ الْوَيْلُ .

﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨] .

وَيَا إِخْوَاني لا تَغْتَرُّوا بِمُلْكِكُمْ ، وَلا تَغْتَرُّوا بِقُوَّتِكُمْ وَجُنُودِكُمْ .

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ .

[غافر:٢٩]

وَكَانَ جَوَابُ فِرْعَوْنَ أَنْ قَالَ :

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩] .

وَأَرَادَ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ أَنْ يُحَذِّرَ قَوْمَهُ سُوءَ الْعَاقِبَةِ ، وَمَصِيرَ الظَّالِمينَ فَقَالَ :

﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر:٣٠، ٣١] .

وَخَوَّفَهُمُ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَمَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ ؟

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤] .

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧] .

﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠١] .

يَوْمَ يَفْزَعُ النَّاسُ وَيَصْرُخُونَ وَيُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيَوْمَ يُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ .

فَقَالَ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ :

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر:٣٣] .

وَقَالَ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ : إِنَّ اللهَ قَدْ وَهَبَكُمْ نِعْمَةً وَلَكِنَّكُمْ ، مَا عرفتم فَضْلَهَا وَمَا قَدَرْتُمُوهَا حَقَّ قَدْرِهَا ، حَتَّى إِذَا ذَهَبَتْ تَأَسَّفْتُمْ عَلَيْهَا .

ذَلِكَ يُوسُفُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ صَلاةُ اللهِ وَسَلامُهُ الَّذِي ، مَا عَرَفْتُمُوهُ وَلَمْ تَقْدِرُوهُ قَدْرَهُ .

وَلَكِنَّهُ لَمَّا مَاتَ قُلْتُمْ : سُبْحَانَ اللهِ نَبِيٌّ وَلا كَيُوسُفَ .

وَمَنْ لَنَا بِنَبِيٍّ بَعْدَهُ ؟! مَنْ لَنَا بِمِثْلِهِ ؟!

أَبَدًا ! لَنْ يَأْتِي مِثْلُهُ !

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا

هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ [غافر:٣٤] .

كَذَلِكَ تَفْعَلُونَ بَعْدَ هذَا النَّبِيِّ أَيْضًا ! وَتَنْدَمُونَ !

٢ـ نصيحة الرجل

وَوَعظَ الرَّجُلُ قَوْمَهُ وَبَذَلَ لَهُمْ وُدَّهُ وَنَصِيحَتَهُ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر:٣٨] .

وَعَلِمَ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ أَنَّ الْقَوْمَ فِي سَكْرَةٍ مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنيا .

وَأَنَّ فِرْعَوْنَ مَغْرُورٌ بِمُلْكِهِ وَقُوَّتِهِ .

وَلَكِنَّ هذِهِ الْحَيَاةَ حُلْمٌ مِنَ الأَحْلامِ ، وَأَنَّ الدُّنيا ظِلٌّ زَائِلٌ .

وَعَرَفَ الرَّجُلُ مَا يَمْنَعُ الْقَوْمَ مِنِ اتِّباعِ مُوسى ؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ سُكَارَى بِسَكْرَةِ الدُّنْيَا .

وَالسَّكْرَانُ مَا يَسْمَعُ وَمَا يَشْعُرُ .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ حَيْثُ لا يَسْمَعُونَ صَوْتَ مُوسى .

فَأَرَادَ أَنْ يُنَبِّهَهُمْ مِنْ غَفْلَتِهِمْ فقال :

﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ .

[غافر:٣٩]

وَطَفَقَ الْجُهَّالُ مِنْ يَدْعُونَهُ إِلى الْكُفْرِ وَالشِّرْكَ ، وَيَدْعُونَهُ إِلى دِينِ الآبَاءِ .

فَإِذَا قَالَ لَهُمْ : تَعَالُوا إِلى الله ، قَالوا لَهُ : ارْجَعْ إِلى دِينِ الآبَاءِ .

وَلَمَّا بَالَغُوا فِي الدَّعْوَةِ قَالَ لَهُمْ :

﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [غافر:٤١] .

﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ [غافر:٤٢] .

وَقَالَ لَهُمُ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ : أَيُّ نَبِيٍّ جَاءَ مِنْ آلِهَتِكُمْ ؟

وَأَيُّ كِتَابٍ نَزَلَ ؟ وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ ؟

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [النجم:٢٣] .

وَهَؤُلاءِ رُسُلُ الله دَعَوْا إِلى الله ، ذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ وَيُوسُفُ ، وَهَذَا نَبِيُّ الله مُوسى .

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ، وَفِي كُلِّ مَكَانٍ لَهُ دَعْوَةٌ .

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ .

وَلَمَّا يَئِسَ الرَّجُلُ من هِدَايَتِهِمْ ، وَسَئِمَ الرَّجُلُ مِنْ بَلادَتِهِمْ تَرَكَهُمْ وقال لَهُمْ :

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ .

[غافر:٤٤]

وَغَضِبَ النَّاسُ وَأَرَادَ آلُ فِرْعَوْنَ أَنْ يَقْتُلُوهُ ، وَلَكِنَّ الله عَصَمَهُ الله وَأَهْلَكَ أَعْدَاءَهُ :

﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٥] .

***

٣- زوج فرعون

وَكَانَ فِرْعَوْنُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ مَلِكُ الْعُقُولِ كَمَا أَنَّهُ مَلِكُ الأَجْسَامِ .

وَأَنَّ لَهُ سُلْطَانًا عَلَى الْقُلُوبِ كَمَا أَنَّ لَهُ سُلْطَانًا عَلَى الأَلْسِنَةِ .

وَلَيْسَ لأحَدٍ فِي مِصْرَ أَنْ يَعْتَقِدَ شَيْئًا أَوْ يُؤْمِنَ بِشَيْءٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ .

وَكَانَ إِذَا آمَنَ أَحَدٌ بِمُوسى فِي أَقْصَى مِملَكَةِ مَصْرَ جُنَّ جُنُونُ فِرْعَوْنَ .

وَقَامَ فِرْعَوْنُ وَقَعَدَ ، وَبَرَقَ فِرْعَوْنُ وَرَعَدَ .

وَقَالَ : كَيْفَ يَكُونُ لَهُ أَنْ يُؤْمِنَ بِمُوسى قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَهُ ؟!

يَعِيشُ فِي مَمْلَكَتِي وَيَعْصِنِي ، وَيَأْكُلُ رِزْقِي وَيَكْفُرُنِي ؟!

أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ رَجُلٍ فِي مِصْرَ مِنْ نَفْسِهِ .

وَيَنْسَى فِرْعَوْنُ أَنَّهُ يَعِيشُ فِي مَمْلَكَةِ الله وَيَعْصِيهِ ، وَيَأْكُلُ رِزْقَ الله وَيَكْفُرُ بِهِ .

وَأَرَاهُ الله آيَةَ فِي بَيْتِهِ ، آيَةً فِي أَهْلِهِ .

أَرَاهُ الله أَنَّهُ مَلِكُ الْعُقُولِ ، كَمَا أَنَّهُ مَلِكُ الأَجْسَامِ .

وَأَنَّ لَهُ سُلْطَانًا عَلَى القُلُوبِ ، كَمَا أَنَّ لَهُ سُلْطَانًا عَلَى الأَلْسِنَةِ .

وَأَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَأَهْلِهِ ، وَأَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .

دَخَلَ الإِيمانُ فِي بَيْتِ فِرْعَوْنَ ، وَهُوَ لا يَشْعُرُ ، وَلَا يَمْلِكُ شَيْئًا .

وَآمَنَتْ امْرَأَةُ فِرعَوْنَ بالله ، وَكَفَرَتْ بِفِرْعَوْنَ .

وآمَنَتْ بِمُوسَى عَلَى رَغْمِ زَوْجِهَا مَلِكِ مِصْرَ .

وَآمَنَتْ بِمُوسَى أعلم خَلْقِ الله بِفِرْعَوْنَ ، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ .

وَلَمْ يَصْنَعُ شُرْطَةُ فِرْعَوْنَ شَيْئًا ، وَلَمْ يَشْعُرُوا بِـذَلِكَ وَلَهُـمْ شَـامَّةُ النَّمْـلِ ، وَعُيُونُ الْغُرَابِ .

وَلَمْ يَشْعُرْ بِذَلِكَ فِرْعَوْنُ وَهُوَ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهَا .

وَلَوْ عَلِمَ بِذَلِكَ فِرْعَوْنُ مَاذَا فَعَلَ ؟ إِنَّهُ يَمْلِكُ الْجِسْمَ وَلكِنَّهُ لا يَمْلِكُ الْعَقْلَ .

وَإِنَّ لَهُ سُلْطَانًا وَلَيْسَ لَهُ عَلَى الْقَلْبِ سُلْطَانٌ .

عَلَى الْمَرْأَةِ أَنْ تُطِيعَ زَوْجَهَا ، وَلَكِنْ لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيةِ الْخَالِقِ .

عَلَى الْوَلَدِ أَنْ يُطِيعَ أَبَوَيْهِ ، وَأَنْ يَكُونَ بِهِمَا بَارًا رَشِيدًا ، وَلَكِنْ لَـيْسَ لَـهُ أَنْ يُطِيعَهُمَا فِي الشِّرْكِ .

﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان:١٥] .

وَاسْتَقَامَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ عَلَى الإِيمَانِ ، وَكَانَتْ تَعْبُدُ الله فِي بَيْتَ عَدُوُ الله .

وَكَانَتْ تَخَافُ الله وَتَبرَأُ إِلى الله مَمَّا يَعْمَلُ فِرْعَوْنَ .

وَرَضِي الله عَنِ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَأَنْجَاهَا الله مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمِلِهِ ، وَضَـرَبَهَا الله مَثَلًا لِلْمُؤْمِنِينَ لإِيمَانِهَا وَشَجَاعَتِهَا .

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [التحريم:١١] .

***

٤ـ محنة بني إسرائيل

وَلَمَّا عَلِمَ النَّاسُ عَدَاوَةَ فِرْعَوْنَ لِبَنِي إِسْرائِيلَ ، تَقَرَّبُوا إِلى فِرْعَوْنَ بِعَدَاوَتِهِمْ وَإِيذَائِهِمْ .

وَاجْتَرَأَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الأَطْفَالُ وَهَرَّتْهُمُ الْكِلابُ .

فَفِي كُلِّ يَوْمٍ مِحْنَةٌ جَدِيدَةٌ ! وَفِي كُلِّ يَوْمٍ بَلِيَّةٌ نَازِلَةٌ .

وَمُوسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يُسَلِّيهِمْ وَيُوصِيهِمْ بِالصَّبْرِ ، وَيَقُولُ لَهُمْ :

﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨] .

وَسَئِمَ بَنُو إِسْرَائِيلَ هَذِهِ الْمِحْنَة وَهَذَا الأَذَى وَقَالُوا لِمُوسى :

لَمْ تَنْفَعْنَا شَيْئًا ، لَمْ تُغْنِ عَنَّا شَيْئًا .

﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ﴾ [الأعراف:١٢٩] .

وَلَكِنَّ مُوسى لَمْ يَجْزَعْ ، وَلَكِنَّ مُوسى لَمْ يَيْأَسْ .

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٢٩] .

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤] .

﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس:٨٥] .

وَكَانَ فِرْعَوْنُ يَمْنَعُ بَني إِسْرَائِيلَ مِنْ عِبَادَةِ الله ، وَيَغْضَبُ إِذَا رآهم يَعْبُدُونَ الله وَيُصَلُّونَ لَهُ .

وَكَانَ يَمْنَعُهُمْ مِنْ أَنْ يَتَّخِذُوا مَسَاجِدَ لله في أَرْضِهِ ، وَكَانَ يَغْضَبُ أَنْ يُعْبَدَ الله في أَرْضِهِ .

مَا أَجْهَلَ فِرْعَوْنَ ! الأَرْضُ لله لا لِفِرْعَوْنَ !

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ عِبَادَ الله أَنْ يَعْبُدُوا الله عَلَى أَرْضِ الله ؟!

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ دَعَا إِلى عِبَادَتِهِ عَلَى أَرْضِ الله ؟!

وَلَكِنَّ فِرْعَوْنَ مَا كَانَ يَقْدِرُ أَنْ يَمْنَعَ أَحَدًا يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ فِي بَيْتِهِ .

فَأَمَرَ الله بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ مُوسى : ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [يونس:٨٧] .

وَعَجَزَ فِرْعَوْنُ وَعَجَزَت شُرْطَتُهُ أَنْ يَحُولُوا بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعِبَادَةِ الله .

وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ ؟! وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَ المسْلِمِ وَعِبَادةِ الله ؟!

٥ ـ المجاعات

وَلَمَّا طَغَى فِرْعَوْنُ وَأَسْرَفَ في الْغَفْلَةِ وَالْعِنَادِ أَرَادَ الله أَنْ يُنَبِّهَهُ .

إِنَّ الله لا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ! إِنَّ الله لا يُحِبُّ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ .

وَكَانَ فِرْعَوْنَ بَلِيدًا جِدًا ، ضَاعَتْ فِيه الْحِكْمَةُ وَالْمَوْعِظَةُ .

وَالْحِمَارُ لا يَنْتَبِهُ حَتَّى يُضْرَبَ .

فَأَرَادَ الله أَنْ يُنَبِّهَهُ .

وَمِصْرَ بِلَادٌ مُخْصِبَةٌ خَضْرَاءُ ، بِلادُ الْخَيْرَاتِ وَالأَثْمَارِ وَبِلادُ الْحُبُوبِ .

وَقَدْ عَلِمْتُمْ كَيْفَ أَنْجَدَتَ مِصْرُ بِلادًا بَعِيدَةً أَيَّامَ الْمَجَاعَةِ فِي عَهْدِ يُوسُفَ عليه السلام .

وَكَيْفَ أَنْجَدَتَ مِصْرُ أَهْلَ الشَّامِ وَأَهْلَ كَنْعَانَ .

وَالنِّيلُ هُوَ الَّذِي يُرْوِي أَرْضَ مَصْرَ وَيَسْقِي زُرُوعَهُمْ .

وَهُوَ مَنْبَعُ السَّعَادَةِ وَالْخَيرِ فِي مِصْرَ .

وَكَانَ فِرْعَوْنُ ، وَأَهْلُ مِصْرَ يَظُنُّونَ أَنَّ النِّيلَ هُوَ مِفْتَاحُ الرِّزْقِ .

وَأَنَّ مِصْرَ غِنِيَّةٌ بِالنِّيلِ عِنِ الْمَطَرِ ، وَعَنْ كُلِّ شَيْءٍ .

وَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ الله عِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الرِّزْقِ .

وَأَنَّ الله يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .

وَأَنَّ النِّيلَ يَجْرِي بِأَمْرِهِ وَيَفِيضُ بِأَمْرِهِ .

وَأَمَرَ الله النِّيلَ فَغَاضَ ، مَاؤُهُ وَذَهَبَ فِي الأَرَضِ .

فَمَاذَا يُرْوِي زُرُوعَ أَهْلِ مَصِرَ ؟!

نَقَصَتْ ثَمَرَاتُهُمْ ، وَنَقَصَتْ حُبُوبُهُمْ ، وَكانتَ مَجَاعةٌ بَعْدَ مَجَاعةٍ .

وَعَجَزَ فِرْعَوْنُ ، وَعَجَزَ هَامَانُ ، وَعَجَزَتْ شُرْطَةُ فِرْعَوْنَ عَنْ كُلِّ حِيلَةٍ .

هُنَالِكَ عَلِمَ أَهْلُ مِصْرَ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَيْسَ رَبَّهُمْ ، وَأَنَّ الرَّزْقَ بِيَدِ الله .

وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَنْفَعْ فِرْعَوْنَ ، وَلَمْ يَنْفَعْ أَهْلَ مَصْرَ وَلَمْ يُنَبِّهْهُمْ .

وَحَالَ الشَّيْطَانُ بينهم وبَيْنَ الْمَوْعِظَةِ وَالْعِبْرَةِ .

قَالُوا : هَذِهِ الْمَجَاعَاتُ ، وَهَذِهِ السِّنُونَ مِنْ شُؤْمِ مُوسى وَقَوْمِهِ .

يَا لَلْعَجَبِ ! أَلَمْ يَكُنْ مُوسى مِنْ قَبْلُ ؟!

أَلَمْ يَكُنْ بَنُو إِسْرَائِيلَ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ ؟!

بَلْ ذَلِكَ مِنْ شُؤْمِ أَعْمَالِهِمْ ، بَلْ ذَلِكَ مِنْ شُؤْمِ كُفْرِهِمْ .

وَعَانَدَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَقَالُوا : إِنَّا لا نَخْضَعُ لِهَذَا السِّحْرِ .

﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

[الأعراف:١٣٢]

٦ـ خمس آيات

وَبَعَثَ الله عَلَيْهِمْ آيةً أُخْرَى .

أَرْسَلَ عَلَيْهِمُ الأَمْطَارَ ، فَفَاضَ النِّيلُ .

وَأَمْطَرَتِ السَّماءُ ، وَأَمْطَرْتْ وَأَمْطَرْتْ ، وَأَمْطَرْتْ .

حَتَّى غَرِقَتِ الزُّرُوعُ وَالْحُقُولُ ، وَتَلِفَتِ الْحُبُوبُ وَالثِّمَارُ .

وَعَادَ الْمَطَرُ عَلَيْهِمْ وَبَالًا .

وَبَيْنَمَا هُمْ يَشْكُونَ قِلَّةَ الْمَاءِ ، إِذَا هُمْ يَشْكُونَ كَثْرَةَ الْمِيَاهِ .

ثُمَّ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ الْجَرَادَ يَأْكُلُ الزُّرُوعَ ، وَالْحُقُولَ وَيَقَعُ عَلَى الأَشْجَارِ ، فَلا يَذَرُ مِنْهَا شَيْئًا .

وَعَجَزَتْ جُنُودُ فِرْعَونَ وَشُرْطَتُهُ ، عَنْ قِتَالِ جُنْدِ الله .

وَكَيْفَ يُقَاتِلُونَهُ ، وَلا تَعْمَلُ فِيهِ السُّيُوفُ ، وَلا تَعْمَلُ فِيهِ السِّهَامُ .

هُنَالِكَ عَلِمَ أَهْلُ مِصْرَ ضَعْفَ فِرْعَوْنَ ، وَعَجْزَ هَامَانَ ، وَقِلَّةَ حِيلَةِ الشُّرْطَةِ .

وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَعْتَبِرُوا ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَنَبَّهُوا .

فَبَعَثَ الله عَلَيْهِمْ جُنْدًا آخَرَ ، ذَلِكَ هُوَ الْقُمَّلُ .

وَتَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ الْقُمَّلُ ، فالْعِياذُ بِالله .

الْقُمَّلُ فِي الفِرَاشِ ، وَالْقُمَّلُ فِي الثِّيابِ ، وَالْقُمَّلُ فِي الرَّأْسِ ، وَالْقُمَّلُ فِي الشَّعْرِ .

فَطَارَ نَوْمُهُمْ وَبَاتُوا يَقْصَعُونَ [١] الْقُمَّلَ وَيَسُبَّونَهُ ، حَتَّى يُصْبِحُوا .

وَكَيْفَ يُقَاتِلُونَهُ ، وَالْقُمَّلُ لَا تَعْمَلُ فِيهِ السُّيُوفُ ، وَلَا تَعْمَلُ فِيهِ السِّهامُ ، وَلَا يُنْجِدُهُمْ فِي ذَلِكَ جُنُودُهُمْ وَشُرْطَتُهُمْ .

ثُمَّ بَعَثَ الله عَلَيْهِمْ الضَّفَادِعَ ، فَفِي الطَّعَامِ ضَفَادِعُ ، وَفِي الشَّرَابِ ضَفَادِعُ ، وَبَيْنَ مَلَابِسِهِمْ ضَفَادِعُ .

وَسَئِمُوا هَذِهِ الضَّفادِعَ وَتَنَغَّصَ عَيْشُهُمْ .

وَانْتَشَرَتَ الضَّفَادِعُ ، وَفَشَتْ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْبَيْتِ .

تِلْكَ تَنِقُّ [٢] وَهذِهِ تَثِبُ هُنَا وَتِلْكَ تَقْفِزُ هُنَاكَ ، وَلَا يَقْتُلُونَ وَاحِدَةً إِلَّا وَتَأْتِي عَشْرٌ وَلا يُخْرِجُونَ وَاحِدَةً إِلَّا وَتَظْهَرُ خَمْسٌ كَأَنَّهَا تُولَدُ فِي الْبَيْتِ .

عَجَزَتِ الْحُرَاسُ ، وَعَجَزِتِ الشُّرْطَةُ عَنِ الضَّفَادِعِ .

وَبَعَثَ الله عَلَيْهِمْ آيَةَ خَامِسَةً ، ذَلِكَ هُوَ الدَّمُ .

فَسَالَ الرُّعَافُ مِنْ آنافِهِمْ ، وَضَعِفُوُا وَتَعِبُوا جِدًا .

وَعَجِزَ الأَطِبَّاءُ عَنِ الْعِلاجِ وَلَمْ يَنْفَعْهُمْ دَوَاءٌ .

وَكَلَّمَا رَأَوْا آيَةً قَالُوا لِمُوسى ، ادْعُ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَكْشِفَ عَنَّا الْبَلاءَ وَنَتُوبُ وَنُؤْمِنَ وَنُرْسِلَ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ .

---

(١) قصع القملة بظفره : قتلها .

(٢) تصوت .

فَلَمَّا كَشَفَ الله عَنْهُمْ الْبَلاءَ نَكَثُوا عَهْدَهُمْ .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٣] .

٧ـ الخروج

وَضَاقَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَرْضُ مِصْرَ وَهِيَ وَاسِعَةٌ .

وَمَا يَصْنَعُونَ بِخصْبِ مِصْرَ وَخَيْرَاتِهَا ، وَهُمْ فِي سِجْنٍ يَذُوقُونَ كَلَّ يَوْمٍ صُنُوفًا مِنَ الْعَذَابِ وَالْهَوانِ ؟!

إِلَى مَتَى يَصْبِرُونَ ، أَلَيْسُوا بَنِي آدَمَ يَشْعُرُونَ بالأذى وَالأَلَم ؟!

وَأَوْحَى الله إلى مُوسى أَنْ يَسْرِيَ بِبني إِسْرَائِيلَ لَيْلًا وَيَخْرُجُ مِنْ مِصْرَ .

وَأَحَسَّ بِذَلِكَ شُرْطَةُ فِرْعَوْنَ ، وَلَهُمْ عُيُونُ الْغُرَابِ وَشَامَّةُ النَّمْلِ ، وَأَخْبَرُوا بِذَلِكَ فِرْعَوْنَ .

سَارَ مُوسى بِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي اللَّيْلِ نَحْوَ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَهُمْ اثْنَا عَشَرَ سِبْطًا كُلُّ سِبْطٍ عَلَيْهِ أَمِيرٌ .

وَالْطَّرِيقُ إِلَى الشَّامِ طَرِيقٌ وَاضِحٌ مَعْلُومٌ ، بَرٌّ يَصِلُ بَيْنَ الْبَرَّيْنِ وَقَدْ جَازَهُ مُوسى مَرَّتَيْنِ (١) .

وَلَكِنَّ مُوسى أَرَادَ أَمْرًا ، وَأَرَادَ الله أَمْرًا ، وَكَانَ مَا أَرَادَهُ الله .

أَخْطَأَ مُوسى الطَّرِيقَ ، وَحَيْثُ أَخْطَأَ مُوسى أَصَابَ الْقَدَرُ .

ظَنَّ مُوسى أَنَّهُ يَسِيرُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى جَانِبَ الشِّمالِ .

---

(١) مرة ذهابًا إلى مدين ، ومرة إيابًا إلى مصر .

فَإِذَا بِهِمْ فِي ظَلامِ اللَّيْلِ إِلَى جَانِبِ الشَّرْقِ [١] .

وَإِذَا بِهِمْ أَمَامَ الْبَحْرِ الأَحْمَرِ تَتَلاطَمُ أَمْوَاجُهُ .

يَا حَافِظُ ، يَا سَاتِرُ ، أَيْنَ نَحْنُ ؟

كَانَ الْجَوَابُ : إِنَّنَا أَمَامَ الْبَحْرِ .

وَالْتَفُوا إِلَى الْوَرَاءِ فَإِذَا بِغبَارٍ ساطِعٍ .

وَإِذا بجُنْدٍ عَظِيمٍ قَدْ سَدَّ الأُفُقِ .

هُنَالِكَ ارْتَفَعَتْ الأَصْوَاتُ .

يَا بْنَ عِمْرَانَ ، مَاذَا أَنْكَرْتَ مِنَّا حَتَّى دَبَّرْتَ قَتْلَنَا .

وَجِئْتَ بِنَا إِلَى شَطِّ الْبَحْرِ ، لِيَقْتُلَنَا فِرْعَوْنُ قَتْلَ الْفِئرانَ حَيْثُ لا فِرارَ وَلَا نَجَاةَ .

لَا نَذْكُرُ إِلَيْكَ سُوءًا فَلِمَاذَا هَذَا الانْتِقَامُ ؟!

أَلَمْ يَكْفِكَ مَا أَصَابَنَا مِنَ الْجُهْدِ وَالْبَلاءِ ، لأَجْلِكَ حَتَّى جِئْتَ بِنَا إِلَى هُنَا ؟!

هَا هُوَ الْبَحْرُ أَمَامَنَا ، وَهَا هُوَ الْعَدُوُّ وراءنا ، وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا الْمَوْتُ .

هُنَالِكَ أَظْلَمَتِ الدُّنْيَا فِي عُيُونِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَزَاغَتِ الأَبْصَارُ ، وَاسْتَوْلَى الْيَأْسُ ثُمَّ خَفَتَتِ الأَصْوَاتُ .

هُنَالِكَ تَزْلْزَلَ كُلُّ أَحَدٍ ، وَحُقَّ للجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ أَنْ تَتَزَلْزَلَ .

وَلَكِنَّ إِيمانَ مُوسى بِرَبِّه لَمْ يَتَزَلْزَلْ ، وَسَمِعَ النَّاسُ صَوْتًا فِيهِ جَلالُ النُّبُوَّةِ .

﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢] .

---

(١) يحسن بالمعلم أن يستلف الطلبة إلى خارطة مصر .

وَأَمَرَ الله مُوسى أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاهُ الْبَحْرَ .

فَضَرَبَ فَانْفَلَقَ الْبَحْرُ ، وَقَامَ الْمَاءُ عَلَى كُلِّ جَانِبٍ كَالْجَبَلِ .

وَإِذَا اثْنَا عَشَرَ طَرِيقًا لاثْنَي عَشَرَ سِبْطًا لِكُلِّ سِبْطٍ طَرِيقٌ .

وَسَارَ الْقَوْمُ آمِنِينَ وَوَصَلُوا إِلَى بَرِّ الأمن وَالسَّلام .

٨ـ غرق فرعون

وَرَأَى فِرْعَوْنُ كَيْفَ سَارَ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، وَعَبَرُوا البَحْرَ آمِنِينَ .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ لِجُنُودِهِ : اُنْظُرُوا إِلَى الْبَحْرِ كَيْفَ انْفَلَقَ طَوْعًا لأمري ، حَتَّى آخُذَ هؤُلاءِ الْفَارِّينَ .

وَتَقَدَّمَ فِرْعَوْنَ بِجُنُودِهِ فَجُزِعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مَرَّةً أُخْرَى .

هَا هُوَ الْعَدُوُّ هَا هُوَ الظَّالِمُ يُرِيدُ أَنْ يَعْبُرَ الطَّرِيقَ إِلَيْنَا .

وَلَا يَمْنَعُهُ مِنَّا شَيْءٌ ، وَسَيَلْحَقُنَا وَيَأْخُذُنَا إِلى مَصْرَ مَأْسُورِينَ أَذِلاَّءَ ، أَوْ يَقْتُلُنَا فِي هَذِهِ الْبَرِّيَّةِ غُرَبَاءَ .

وَأَرَادَ مُوسى أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاهُ البَرَّ ، فيعُودُ بَحْرًا كَمَا كَانَ ، وَلَكِنْ أَوْحَى الله إِلَيْهِ : أُتْرُكِ الْبَحْرَ سَاكِنًا : ﴿إِنَّهُم جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان:٢٤] .

وَلَمَّا وَصَلَ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ إِلى عَرْضِ الْبَحْرِ « وَهُوَ بَرٌّ » انْطَبَقَ عَلَيْهِمْ وَلَمَّا رَأَى فِرْعَوْنُ الجِدَّ زَالَتْ سَكْرَتُهُ .

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠] .

وَلَكِنْ هَيْهَاتَ : ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ

أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ [النساء:١٨] .

﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام:١٥٨] .

فَقِيلَ لَهُ : ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس:٩١] .

وَمَاتَ فِرْعَوْنُ فِي الْبَحْرِ غَرَقًا .

مَاتَ الْجَبَّارُ الَّذي قَتَلَ أُلُوفًا مِنَ الأَطْفَالِ وَالرِّجَالِ ذَبْحًا وَخَنْقًا .

مَاتَ الطَّاغِيَة قَتَلَ أُلُوفَ آلافٍ صَبْرًا وَشَنْقًا .

مَاتَ مَلَكُ مِصْرَ بَعِيدًا عَنْ عَرْشِهِ بَعِيدًا عَنْ قَصْرِهِ ، بَعِيدًا عَنْ سُلْطَانِهِ لا طَبيبُ يُداوِيهِ وَلا صَدِيقٌ يُوَاسِيه ، وَلَا عَيْنٌ تَبْكِيهِ .

وَكَانَ بَنُوا إِسْرَائِيلَ فِي شَكٍّ عَنْ مَوْتِهِ يَقُولُونَ : إِنَّ فِرْعَوْنَ لا يَمُوتُ .

أَمَا كَنَّا نَرَاهُ يَقْضِي أَيَّامًا لا يَأْكُلُ وَلا يَشْرَبُ ؟!

وَقَذَفَ الْبَحْرُ جُثَّتَهُ فَأَيْقَنُوا بِمَوْتِهِ .

وَقَالَ الله تَعَالَى لِفِرْعَوْنَ : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ [يونس:٩٢] ، لِلناظرينَ وَعَبْرَةً لِلْمُعْتَبِرين .

وَغَرَقَ جُنْدُ فِرْعَوْنَ عَنْ آخِرِهِ ، وَمَا نَجَا مِنْهُمْ أَحَدٌ .

وَخَلَّفُوا مِصْرَ وَرَاءَهُمْ ، وَلَمْ يَجِدُوا فِي أَرْضِهَا الْوَاسِعَةِ ذِرَاعًا لِمَدْفَنٍ .

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ .

[الدخان:٢٥ــ ٢٩]

٩- في البرية !

وَصَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلى بَرِّ الأمنِ وَالسَّلامِ ، وَتَنَفَّسُوا في هَوَائِهِ كالأحرار الأَشْرَافِ .

هُنَالِكَ لا يَخَافُونَ فِرْعَوْنَ ، وَلَا يَخَافُونَ هَامَانَ وَلا يَخَافُونَ شُرْطَتَهُ .

هُنَالِكَ يَمْشُونَ آمِنِين مُطْمَئِنِّينَ ، لا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا الله .

وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ الْخَضَرِ وَكَانَتِ الشَّمْسُ تُؤذِيهِم في الْبَرِّيَةِ .

وَكَانُوا ضُيوفَ الله ، أَلَمْ تَرَ المَلُوكُ كَيْفَ يُكْرِمُونَ ضُيُوفَهُمْ ؟!

وَكَيْفَ يَضْرِبُونَ لَهُمْ الْخِيَامِ تَقِيهِمْ حَرَّ الشَّمْس ؟!

إِنَّ كَرَامَةَ الله فَوْقَ كُلِّ كَرَامَةٍ .

وَأَمَرَ الله الْغَمَامَ أَنْ يُظِلَّهُمْ ، فَكَانُوا يَمْشُونَ في ظِلِّ الْغَمامِ ، وَكَانَ الْغَمَامُ يَسِيرُ مَعَهُمْ حَيثُ سَارُوا وَيَقِفُ أَينَمَا وَقَفُوا .

وَعَطِشَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَلَا مَاءَ في الْبَرِيَّةِ ، وَلا نَهْرَ وَلا بِئْرَ .

ذَهَبُوا إِلى مُوسى ، يَشْكُونَ إِلَيْهِ الْعَطَش ، كَمَا يَشْكُو الطِّفْلُ إِلى أُمِّهِ وَيَسْتَغْيثُهَا .

وَدَعَا مُوسى رَبَّهُ ، وَمَنْ لَهُ غَيْرُهْ ؟!

فَقَالَ : ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ [الأعراف:١٦٠] .

﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ﴾ [البقرة:٦٠] .

وَجَاعَ بَنُو إِسْرَائِيَل ، فَشَكُوا إِلى مُوسى الْجُوعَ ، كَمَا يَشْكُوا الطِّفْلُ إِلى أُمِّهِ ويستغيثها .

وَقَالُوا إِنَّكَ أَخْرَجْتَنَا مِنْ مِصْرَ أَرْضِ الْفَوَاكِهِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَأَرْضِ الْخَيْرَاتِ وَالطَّيِّبَاتِ ، فَمَنْ لَنَا بِطَعَامٍ فِي هذِهِ الْبَرِّيَّةِ ؟

دَعَا مُوسى رَبَّهُ وَمَنْ لَهُ غَيْرُهُ ؟ فَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الطَّعَامَ .

أَنْزَلَ لَهُمْ عَلَى أَوْرَاقِ الأَشْجَارِ مِثْلَ الْحَلْوَى ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ طَيْرًا يَأْخُذُونَهُ مِنَ الأَشْجَارِ بِسُهُولَةٍ .

ذَلِكَ هُوَ الْمَنُّ وَالسَّلْوى ، ضِيَافَةُ الله لِبَني إِسْرَائِيلَ فِي الْبَرِيَّةِ .

١٠ـ كفران بني إسرائيل

وَلَكِنَّ بني إِسْرَائِيلَ قَدْ أَفْسَدَ ذَوْقَهُمْ وَخُلُقَهُم الْعُبُودِيَة الطَّويلَةُ .

وَكَانُوا لا يَقِرُّونَ عَلَى شَيْءٍ ، وَكَانُوا لا يَسْكُنُونَ إِلى شَيْءٍ ، وَكَانُوا في طِبَاعِهِمْ أَطْفَالًا .

وَكَانُوا قَلِيلِي التَّشَكُّرِ ، كَثِيري التَّشَكِّي ، سَرِيعِي السَّآمَةِ ، يُحِبُونَ مَا مُنِعُوا وَيَكْرَهُونَ مَا أُعْطُوا .

وَلَمْ يَلْبَثُوا قَلِيلًا أَنْ قَالُوا لِمُوسى : قَدْ سَئِمْنَا هَذَا الطَّعَامَ الْوَاحِدَ ، وَقَدْ سَئِمْنَا هَذَا اللَّحْمَ وَهذِهِ الْحَلْوى .

وَقَدِ اشْتَهَيْنَا الْخُضَرَ وَالْبُقُولَ .

﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ﴾ [البقرة:٦١] .

تَعَجَّبَ مُوسى مِنْ هَذا السُّؤَالِ الْغَرِيبِ ، وَقَالَ بِصَوْتٍ فِيهِ الإِنْكَارُ وَفِيهِ الاستعجاب وَفِيهِ الْعِتَابُ .

﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ﴾ [البقرة:٦١] ؟!

أَبُقُولًا وَخُضَرَ مَكَانَ طُيُورٍ ، وَحَلْوَى لَمْ تَمَسَّهَا يَدُ إِنْسَان ؟!

أَطَعَامَ الْفَلاَّحِينَ بدل طَعَامِ الملُوكِ ؟

يَا لَفَسَادِ الذَّوْقِ ، يَا لَسُوءِ الاختيارِ .

وَلَكِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَتَنازَلُوا عَنْ سُؤَالِهِمْ ، وَلَمْ يَزَالُوا يَطْلُبُونَ الْخُضَرَ وَالْبُقُولَ .

فَقَالَ مُوسى : إِنَّ مَا سَأَلْتُمْ يُوجَدُ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ وَمِصْرٍ .

﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة:٦١] .

١١ـ عناد بني إسرائيل

وَكَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي طِبَاعِهِمْ أَطْفَالًا ، وَأَطْفَالًا مُعَانِدِينَ .

وَكُلَّمَا أُمِرُوا بِأَمْرٍ يُخَالِفُوهُ إِلى ضِدِّهِ وَيَسْتَهْزِؤُوا بِهِ .

كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ الْوَاجِبِ أَنْ يُبَدِّلُوا مَا يُقَالُ لَهُمْ .

كَطِفْلٍ عَنِيدٍ يُقَالُ لَهُ : قُمْ فَيَجْلِسُ وَيُقَالُ لَهُ : اجْلِسْ فَيَقُومُ ، وَيُقَالُ لَهُ : اسْكُتْ فَيَتَكَلَّمُ ، وَيُقَالُ لَهُ : تَكَلَّمْ فَيَسْكُتُ .

وَكَانَ فِيهِمْ عِنَادُ الأَطْفَالِ فِي خُبْثِ الأَشرارِ ، فِي هُزْءِ الأَعْدَاءِ فِي سَفَاهَةِ الْمَجَانِينِ .

كَانُوا يُرِيدُونَ أَنْ يَسْكُنُوا قَرْيَةً ، وَيَأْكُلُوا طَعَامَهُمُ الشَّهِيَّ مِنَ الْخُضَرِ والْبُقُولِ .

وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا قِيلَ لَهُمْ : ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:٥٨] .

غَضِبُوا مِنْ هَذَا الأمر الإلهي ، وَدَخَلُوا الْقَرْيَةَ كَرْهًا ، وَهَزُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتِهِمْ .

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ [البقرة:٥٩] .

فَأَنْزَلَ الله عَلَيْهِمْ بَلاءً ، وَبَعَثَ عَلَيْهِمْ وَبَاءً مَاتُوا مِنْهُ مَوْتَ الْفِئرَانِ .

وَإِذَا أُمِرُوا بِأَمْرٍ أَكْثَرُوا السُّؤالَ وَالتَّنْقِيرَ .

شَأْنَ رَجُلٍ لا يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ ، فَيُكْثِرُ السُّؤَالَ وَالتَّنْقِيرَ .

حَدَثَ فِي بَنِي إِسْرَائِيل حَادِثُ قَتْلٍ ، فَأَهَمَّ ذَلِكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ .

وَلَمْ يَهْتَدُوا إِلى الْقَاتِلِ ، وَكَانَ السُّؤَالُ عَنِ الْقَاتِلِ حَدِيثَ النَّاسِ .

جَاؤُوا إِلَى مُوسى ــ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ــ وَقَالُوا : أَعِنَّا يَا نَبِيَّ الله ، فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةَ وَادْعُ الله يُبَيِّنْ لَنَا الْقَاتِلَ .

١٢ـ البقرة

وَدَعَا مُوسى رَبَّهُ ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِذَبْحِ بَقَرةٍ .

هُنَالِكَ حَلَّتِ المصِيبَةُ ، وَبَدَا بَنُو إِسْرَائيلَ يَسْأَلُونَ وَيَسْخَرُونَ .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾ [البقرة:٦٧] .

﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ [البقرة:٦٧] .

﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة:٦٧] .

وَهُنَا أَرْسَلُوا الأَسْئِلَةَ .

﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾ [البقرة:٦٨] .

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة:٦٨] .

وَلَمْ يَقِفُوا عَلَى هَذَا السُّؤَالِ ، بَلْ بَدَؤُوا يَسْأَلُونَ عَنْ لَوْنِهَا .

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ﴾ [البقرة:٦٩] .

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [البقرة:٦٩] .

وَلَمْ يَجِدُوا سُؤَالًا فَأَطْلَقُوا السُّؤَالَ .

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ .

[البقرة:٧٠]

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ﴾ .

[البقرة:٧١]

وَوُفِّقُوا فِي هذِهِ الْمَرَّةِ لأَنَّهُمْ قَالُوا : ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:٧٠] فَاهْتَدَوْا .

وَلَكِنَّ أَسْئِلَتَهُمْ ضَيَّقَتْ عَلَيْهِمُ الأمر ، فَلَوْ ذَبَحُوا أَيَّ بَقَرَةٍ لَكَانَتْ كَافِيَةً ، وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ الله عَلَيْهِمْ .

وَفَتَشُوا عَنِ الْبَقَرَةِ الْعَوَانِ الصَّفْرَاءِ الْفَاقِعِ لَوْنُهَا الَّتِي لا تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ الْمُسَلَّمَةِ الَّتِي لاشِيَةَ فِيهَا .

وَنَدَرَ وُجُودُ هَذِهِ الْبَقَرَةِ الْغَرِيبَةِ ، فَإِمَّا بَقَرَةٌ فَارِضٌ وَإِمَّا بَقَرَةٌ بِكْرٌ .

وَإِمَّا عَوَانٌ وَلَكِنْ غَيْرُ صَفْرَاءَ .

وَإِمَّا بَقَرَةٌ عَوَانٌ صَفْرَاءُ ، وَلَكِنْ لَوْنُهَا غَيْرُ فَاقِعٍ .

وَإِمَّا بَقَرَةٌ عَوَانٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ، وَلَكِنَّهَا بَقَرَةٌ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ .

وَإِمَّا بَقَرَةٌ عَوَانٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا لا تُثِيرُ الأَرْضَ ، وَلَكِنَّهَا تَسْقِي الْحَرْثَ .

وَفَتَّشُوا وَفَتَّشُوا ، وَعَلِمُوا عَاقِبَةَ هَذَا التَّنْقِيرِ ، مَا هِيَ ؟ مَا لَوْنُهَا ؟ مَا هِي ؟ وَتَعِبُوا .

وَأَرَادَ الله بِيَتِيمٍ خَيْرًا فَوَجَدُوا هذِهِ الْبَقَرَةَ الَّتِي وَصَفَهَا الله عِنْدَهُ ، فَاشْتَرَوْهَا بِثَمَنٍ غَالٍ جِدًا : ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١] .

وَأَمَرَ الله أَنْ يُضْرَبَ الْمَقْتُولُ بِجُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْبَقَرَةِ ، وَيُخْبِر بِاسْمِ الْقَاتِلِ .

وَهَكَذَا كَانَ .

١٣ـ الشريعة

وَخَرَجَ بَنُوا إِسْرَائِيلَ مِنْ عَيْشِ الْبهائِمِ إِلى عَيْشِ النَّاسِ .

وَصَارُوا يَعِيشُونَ فِي الْبَرِيَّةِ كَالأَحْرَارِ الأَشْرَافِ .

هُنَالِكَ يَعِيشُونَ فِي الْبَرِيَّةِ كَالأَحْرَارِ الأَشْرَافِ .

هُنَالِكَ احْتَاجُوا إِلى شَرِيعَةٍ إِلَهِيَّةٍ تَحْكُمُ بَيْنَهُمْ وَتُنِيرُ لَهُمُ السَّبِيلَ .

إِنَّ الإِنْسَان لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعِيشَ كَإِنْسَانٍ إِلَّا بِشَرِيعةٍ إِلهيَّةٍ ، وَإِلَّا بِنُورٍ مِنْ رَبِه .

الْعَالَمُ كُلُّهُ إِلَّا مَنْ أَشْرَقَ لَهُ نُورٌ مِنْ رَبِّهِ .

وَذَلِكَ النُّورُ هُوَ نورُ الأَنْبِيَاءِ الَّذِي يَهْتَدِي بِهِ النَّاسُ .

وَمَنْ لَمْ يَهْتَدِ بِهَذَا النُّورِ كَانَ فِي ضلالٍ يَخْبِطُ عَشْوَاءَ .

فَالْعَقَائِدُ ــ بِغَيْرِ هذَا النُّورِ ــ أَوْهَامٌ وَخُرَافَات يَضْحَكُ مِنْهَا الأَطْفَالُ .

أَمَا سَمِعْتُمْ عَقَائِدَ المشْرِكينَ وَالْكُفَّارِ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، وَخُرَافَاتِهِمْ وَأَسَاطِيرَهُمْ ؟!

وَالْعِلْمُ جَهْلٌ وَظَنٌّ ، وَتَخْمِينٌ وَشَكٌّ : ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [الأنعام:١١٦] .

وَالأَخلاقُ تَفْرِيطٌ وَإِفْرَاطٌ وَتَقْصِيرٌ وَإِسْرَافٌ ، أَمَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ لا يَتَّبِعُونَ الأَنْبِياءَ كَيْفَ يَهْضِمُونَ الْحُقُوقَ يُجَاوِزُونَ الْحُدُودَ وَكَيْفَ يَتَّبِعُونَ الْهَوَى ؟!

وَالْحُكْمُ وَالسِّيَاسَةُ ظُلْمٌ وَاسْتِبْدَادٌ ، وَخَبْطٌ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ وَحُقُوقِهِمْ وَدِمَائِهِمْ .

أَمَا رَأَيْتُمْ أَولي الأمر ـ مِمَّنْ لا يَخَافُونَ الله وَلا يَتَّبِعُونَ الشَّرِيعَةَ ـ كَيْفَ يَخُونُونَ الأَمَانَاتِ ، وَكَيْفَ يَعْبَثُونَ بِأَمْوالِ الله ، وَكَيْفَ يَعْبَثُونَ بِدِماءِ النَّاسِ وَحُقُوقِهِمْ ؟!

وَكَيْفَ اسْتَعْبَدُوا النَّاسَ ، وَجَعَلُوهُمْ شِيَعًا يَذْبَحُونَ رِجَالَهُمْ ، وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ ، أَتَعْلَمُ كَمْ قُتِلَ فِي الْحَرْبِ الأولى ، وَكَمْ قُتِلَ فِي الْحَرْبِ الثَّانِيَةِ [1] فَالْعَالَمُ كُلُّهُ ظَلَامٌ إِلَّا مَنْ أَشْرَقَ لَهُ نُورٌ مِنْ رَبِّهِ .

﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠] .

وَالنَّبِيُّ يُعَلِّمُ النَّاسَ كَيْفَ يَعْبُدُونَ الله ، وَكَذَلِكَ يُعَلِّمُهُمْ كَيْفَ يُعَامِلُ

---

(١) للعلم : عدد المصابين في الحرب الأولى الكبرى (١٩١٤ــ١٩١٨) على ما حققه الإنكليزي السياسي الخبير أي ـ إليس تاونسند أكثر من سبعة وثلاثين مليونًا (٣٧٥١٣٨٨٦) رجلًا ، المقتولون منهم (٨٥٤٣٥١٥) نسمة ، وقدر النائب البريطاني المستر ميكستن أن عدد المصابين في الحرب الثانية الكبرى لا يقل عن خمسين مليون .

بَعْضُهُمْ بَعْضًا .

وَالنَّبِيُّ يُعَلِّمُ النَّاسَ آدَابَ الْحَيَاةِ مَعَ آدَابَ الدِّينِ ، وَيُعَلِّمُهُمْ آدَابَ الأَكل ، وآدَابَ الشُّرْبِ ، وَآدابَ النَّوْمِ وَأَدَبَ الْمَجْلِسِ وَأَدَبَ كُلَّ شَيْءٍ .

وَيُعَلَّمُهُمْ الآدَابَ كَمَا يُعَلِّمُ الْوَالِدُ الشَّفِيقُ أَبْنَاءَهُ الأَعِزَّةَ .

وَالنَّاسُ كَالأَطْفَالِ الصِّغَارِ يحتاجون في كِبَرِهِمْ إِلى تَرْبِيَةِ الأَبْنَاءِ أَكْثَرَ مما يَحْتَاجُونَ في صِغَرِهِمْ إِلى تَرْبيَةِ الآبَاءِ .

وَالَّذِينَ لَمْ يَتَلَقَّوْا هذِهِ التَّرْبيةَ النَّبَوِيَّةَ ، وَلَمْ يَتَعَلَّمُوا الآدَابَ مِنَ الأَنْبِيَاءِ كَأَشْجَارِ الْبَرِّيَّةِ ، نَبتتْ وَنَشَأَتْ بِنَفْسِهَا ، فَيَرَى فِيهَا عِوجًا وَشَوْكًا وَفَسَادًا .

١٤ـ التوراة

وَأَرَادَ الله أَلَّا يُضِيعَ بَنُو إِسْرَائيلَ ، كَمَا ضَاعَتْ أُمَمٌ بِغَيْرِ كِتَابٍ ، وَهُدَىً مِنَ الله .

وَأَرَادَ أَنْ لا يَخْبِطُوا خَبْطَ عَشْوَاءَ كَمَا خَبطَتْ أُمَمٌ خَبْطَ عَشْوَاءَ .

أَمَرَ الله مُوسى أَنْ يَتَطَهَّرَ ، وَأَن يَصُومَ ثَلاثِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ يَأْتي إِلى طُورِ سِينَاءَ ، حَتَّى يُكَلِّمُهُ رَبُّهُ وَيَتَلَقَّى كِتابًا يَكُونُ لَهُمُ الإِمام .

واخْتَارَ مُوسى مِنْ قَوْمِهِ سَبْعِينَ رَجُلًا ، يَكُونونَ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدينَ ؛ لأَنَّ بَني إِسْرَائِيلَ قَوْمٌ جُحْدٌ .

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٤٢] ؛ لأَنَّ الْجَمَاعَةَ لابُدَّ لَهَا مِنْ إِمَامٍ .

سَارَ مُوسى لِميقَاتِ رَبِّهِ ، وَلَكِنَّهُ حَثَّهُ الشَّوْقُ إِلَى رَبِهِ ، فَتَعجَّلَ وَسَبَقَ إِلى الطُّورِ .

قَالَ الله : ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٨٣] ؟

﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ [طه:٨٤] .

وَأَمَرَهُ الله أَنْ يُتِمَّ مِيقَاتَ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .

وَصَلَ مُوسَى إِلى طُورِ سَيْنَاءَ ، فَكَلَّمَهُ رَبُّهُ وَنَاجَاهُ وقربه وَأَدْنَاهُ ، فَزَادهُ ذَلِكَ شَوْقًا فَقَالَ : ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف:١٤٣] .

وَالله يَعْلَمُ أَنَّ مُوسى لا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ ؛ لأَنَّ الله : ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣] .

وَإِنَّ الْجِبَالَ لا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْمِلَ كَلاَمَهُ فَضْلًا عَنْ نُورِهِ .

﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ .

[الحشر:٢١٦]

﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ .

[الأعراف:١٤٣]

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ [الأعراف:١٤٣] .

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣] .

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٤] .

أَخَذَ مُوسى الأَلْوَاحَ ، وَفِيهَا كُلُّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ .

وَأَمَرَهُ الله أَنْ يَأْخُذَهَا بِقُوةٍ ، وَيَأْمُرَ قَوْمَهُ أَنْ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا .

وَلـمَّا وَصَلَ مُوسى إِلى السَّبْعِينَ رَجُلًا مِنْ قَوْمِهِ ، وَأَخْبَـرَهُمْ بِمَـا أَنْعَـمَ الله عَلَيْهِ قَالُوا في وَقَاحَةٍ وَجَسَارَةٍ :

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْـرَةً﴾ غَضِبَ الله عَلَى هَذِهِ الْوَقَاحِـةِ وَالْجُـرْأَةِ ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ .

وَرَأَوْا أَنَّهُمْ لا يَتَحَمَّلُونَ هَذِهِ الصَّاعِقَةَ الَّتي خَلَقَهَا الله ، فَكَيْفَ يَتَحمَّلُونَ نُـورَ الله .

وَدَعَا مُوسـى رَبَّـهُ وَقَـالَ : ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف:١٥٥] ؟!

وَأَجَابَ الله دُعَاءَهُ وَبَعَثَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهُمْ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ .

١٥ـ العجل

وَكَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَعِيشُونَ مع المشركين في مِصْرَ مُنْذُ قُرُونٍ .

وَكَانَ الأَقْباطُ يَعْبُدُونَ أَشْيَاءَ كَثِيـرةً في مِـصْرَ ، وَبَنُـو إِسْـرَائِيلَ يَـرَوْنَ ذَلِـكَ بِعُيُونِهِمْ .

وَزَالَتْ مِنْهُمْ كَراهَةُ الشِّرْكِ ، وَتَسَّربَ إِلَيْهِمْ حُبُّهُ كَمَا يَتَسَرَّبُ الْمَاءُ إِلَى بَيْتٍ وَاهِنٍ عَتِيقٍ .

وَكَانُوا كُلَّمَا وَجَدُوا فُرْصَةً انْحَدَرُوا إِلَى الـشِّرْكِ ، كَمَـا يَنْحَـدِرُ الْمَـاءُ إِلَـى الْحُدُورِ .

وَزَاغَتْ قُلُوبُهُمْ وَفَسَدَ ذَوْقُهُمْ ، فَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِـذُوهُ سَـبِيلًا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا .

جَـازُوا الْبَحْـرَ : ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ﴾ [الأعراف:١٣٨] .

وَغَضِبَ مُوسى وَقَالَ : ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ .

يَا لَلْعَجَبَ ، يَا لَلظُّلْمِ ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ وَفَضَّلَكُمْ ، وآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ .

﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ .

[الأعراف:١٤٠]

سَارَ مُوسى إِلى الطُّورِ ، وَغَابَ عَنْهُمْ أَيَّامًا فَكَانُوا صَيْدَ الشَّيْطَانِ ، وَفَرِيسَةَ الشِّرْكِ .

قَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ السَّامِرِيّ : ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [الأعراف:٨٨] .

وَفُتِنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِهَذَا الْعِجْلَ ، وَخَرُّوا عَلَيْهِ صُمًا وَعُمْيَانًا .

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه:٨٩] .

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف:١٤٨] .

وَنَهَاهُمْ هَارُونُ عَنْ ذَلِكَ وَاجْتَهَدَ وَقَالَ :

﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه:٩٠] .

وَلَكِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا مَفْتُونِينَ بِسِحْرِ السَّامِرِيِّ ، وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْعِجْلَ فَقَالُوا :

﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه:٩١] .

١٦ـ العقاب

وَلـمَّا أَخْبَرَ الله مُوسى أَنَّ بَني إِسْرَائِيلَ أَضَّلَهُمُ الـسَّامِرِيُّ ، رَجَـعَ إِلى قِوْمِـهِ غَضْبَانَ أَسِفًا .

وَغَضَبَ عَلى قَوْمِهِ ، وَغَضِبَ الله على أَخِيهِ هَارُونَ .

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ [طه:٩٢] .

وَاعْتَذَرَ هَارُونُ وَقَـالَ : ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ [طه:٩٤] .

﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي ﴾ .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

ثُمَّ الْتَفَتَ مُوسى إِلى السَّامِرِيِّ وَقَالَ : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴾ .

[طه:٩٥]

واعْتَرَفَ السَّامِرِيُّ بِجُرْمِهِ وَقَالَ : ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ [طه:٩٥] .

﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ ﴾ [طه:٩٦] .

وَعَاقبهُ مُوسى بالانْفِرَادِ ، يَمْشِي وَحْدَهُ ، وَيَعِيشُ وَحْدَهُ كَالْوحْشِيُ لا يَأْلَفُ وَلا يُؤْلَفُ .

وَأَيُّ عِقَابٍ أَكْبَرُ مِنْ هَذَا ؟!

إِنَّ الَّذِي نَجَّسَ أُلُوفًا مِنَ النَّاسِ بالشِّرْكِ ، يَجِبُ أَنْ يَتَقَذَّرَهُ النَّاسُ وَيَنْبُذُوهُ .

إِنَّ الَّذِي فَرَّقَ بَيْنَ الله وَعِبَادِهِ ، يَجِبُ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ .

إِنَّ الَّذِي دَعَا إِلَى الشِّرْكِ فِي أَرْضِ الله يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الأَرْضُ كُلُّهَا سِجْنًا لَهُ .

ثُمَّ الْتَفَتَ مُوسى إِلى الْعِجْلِ الْمَلْعُونِ ، فَأَمَرَ بِإِحْرَاقِهِ ثُمَّ نَفَضَهُ فِي الْبَحْرِ .

وَرَأَى بَنُو إِسْرَائِيلَ مَصِيرَ الْعِجْلِ الْمَعْبُودِ ، وَرَأَوْا ضَعْفَهُ وَعَجْزَهُ .

ثُمَّ الْتَفَتَ مُوسى إِلى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَالَ :

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرى:٥٤] .

وَكَذَلِكَ فَعَلُوا ، وَقَتَلَ الَّذِينَ لَمْ يَعْبُدُوا الْعِجْلَ الَّذِينَ عَبَدُوهُ ، وَهكذا تَابَ الله عَلَيْهِم .

وَقَالَ الله تَعَالَى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف:١٥٢] .

وَكَذَلِكَ عُبَّادُ الْعِجْلَ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَكَذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

١٧- جبن بني إسرائيل

نَشَأَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلى الْعُبُودِيَّةِ فِي مِصْرَ ، وَعَلَى الذُّلِ وَالهَوَانِ وَشَبَّ عَلَيْهِ الأَطْفَالُ وَشَابَ عَلَيْهِ الشُّبَّانُ ، وَبَرَدَ فِي عُرُوقِهِمْ الدَّمُ .

وَأَصْبَحُوا لا يَحْلُمُونَ بِسِيَادةٍ ، وَلا يَتَحَدَّثُونَ بِغَزْوٍ وَلا جِهَادٍ .

كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَقْضُونَ أَيَّامَهُمْ فِي الْغُرْبَةِ لَيْسَ لهُمْ وَطَنٌ وَلا حُكْمٌ .

فَأَرَادَ مُوسى بِوَحْيِ الله أَن يَدْخُلُوا الأرض المقَدَّسَةَ ، وَيَسْكُنُوا فِيهَا مُلُوكًا أَحْرَارًا .

وَلَكِنَّ مُوسى كَانَ يَعْرِفُ طَبِيعَةَ الْجُبْنِ وَالضعْفِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ .

فَأَرَادَ أَنْ يُشَوِّقَهُمْ وَأَن يُهَوِّنَ عَلَيْهِمُ الأَمْرَ ؛ لأَنَّ الأَرْضَ المقَدَّسَةَ قَدْ اسْتَوْلَى عَلَيْها قَوْمٌ جَبَّارُونَ ، أُولُو قُوَّةٍ وَأُلُو بَأْسٍ شَدِيدٍ .

وَلَا يَدْخُلُ بَنُو إِسْرائيل الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ، حَتَّى يخْرِجُوا مِنْهَا هؤُلاءِ الْجَبَّارِينَ .

فَذَكَرَ نِعَمَ الله عَلَيْهِمْ وَمَا فَضَّلَهُمْ بِهِ عَلَى الْعَالَمِينَ ، حَتَّى يَنْشَطُوا لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ الله ، وَحَتَّى يَكْرَهُوا هَذِهِ الْحَيَاةَ الذَّلِيلَةِ غَيْرَ اللاَّئِقَةِ .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة:٢٠] .

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : إِنَّ أَمَامَكُمْ الأَرْضَ الْمَقَدَّسَةَ ، فَلَيسَ لَكُمْ إِلَّا أَنْ تَقُومَوا وَتَنْتَزِعُوهَا مِنْ أَعْدَائِكُمْ .

وَإِنَّ الله إِذَا كَتَبَ لأَحَدٍ شَيْئًا وَقَدَّرَهُ لَهُ هَانَ عَلَيْهِ ، أَنْ يَأْخُذَهُ فَلا رَادَّ لِقَضَاءِ الله .

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة:٢١] .

وَخَافَ أَنْ تَغْلِبَهُمْ طَبِيعَةُ الْجُبْنِ فَقَالَ :

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة:٢١] .

وَوَقَعَ مَا كَانَ يَحْذَرُهُ مُوسى ، فَكَانَ جَوَابُهُمْ عَلَى كُلِّ مَا قَالَ مُوسى .

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا ﴾ [المائدة:٢٢] .

وَقَالُوا فِي وَقَارٍ وَسُكُونٍ :

﴿فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ .

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٢٣] .

وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يُؤَثِّرْ فِيهِمْ وَقَالوا :

إِذَا كَانَ لابُدَّ مِنَ الدُّخُولِ فَادْخُلْ أَنْتَ بِمُعْجِزَةٍ ، فَإِذَا سَمِعْنَا أَنَّكَ قَدْ دَخَلْتَهَا ، جِئْنَا فَدَخَلْنَا نَحْنُ أَيْضًا آمِنِينَ سَالِمِينَ .

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤] .

هُنَالِكَ غَضِبَ مُوسى وَيَئِسَ مِنْ هؤلاء :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .

[المائدة:٢٥]

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة:٢٦] .

وَفِي هَذِهِ المدَّةِ يَمُوتُ هَذَا الْجِيلُ الَّذِي نَشَأَ فِي مِصْرَ على العُبُودِيةِ وَالذُّلِّ . وَيَنْشَأُ جِيلٌ آخَرُ يَنْشَأُ فِي هَذَا التِّيهِ عَلَى الشِّدَّة وَالْعُسْرِ ، وَتِلْكَ أُمَّةُ الْمسْتَقْبَلَ وَهذا هُوَ مَصِيرُ اليهودِ فِي كُلِّ زَمَانٍ أُمَّةٌ تَائِهةٌ تَعِيشُ عَلَى الْعُبُودِيَّةِ والذُّلِّ .

***

١٨ـ في سبيل العلم

عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ : قَامَ مُوسى خَطِيبًا في بني إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ :

أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ ؟

فَقَالَ : أَنَا أَعْلَمُ !

فَعَتَبَ الله عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلى الله .

فَأَوْحَى الله إِلَيْهِ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ .

قَالَ : رَبِّ كَيْفَ بِهِ ؟

فَقِيلَ لَهُ : احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ « زَنْبِيلٍ » فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمَّ .

فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ ، وَحَمَلا حُوتًا فِي مِكْتَلٍ حَتَّى كَانَ عِنْدَ الصَّخْرَةِ ، وَضَعَا رُؤُوسَهُمَا فَنَامَا .

فَانْسَلَّ الْحُوتُ مِنَ الْمَكْتَلِ ، فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البحر سربا « مسلكًا » وَكَانَ لِمُوسى وَفَتَاهُ عَجَبًا .

فَانْطَلَقَ بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمِهِمَا ، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ مُوسى لِفَتَاهُ : آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا « تَعَبًا » .

وَلَمْ يَجِدْ مُوسى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ .

فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ : ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ [الكهف:٦٣] .

قَالَ مُوسى : ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ [الكهف:٦٤] .

﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ [الكهف] .

فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلى الصَّخرةِ إِذَا رَجُلٌ مُسَجى « مُغَطًّى » بِثَوْبٍ فَسَلَّمَ مُوسى .

فَقَالَ الْخِضْرُ : وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلامُ ؟

فَقَالَ : أَنَا مُوسى .

فَقَالَ : مُوسى بَني إِسْرَائِيلَ ؟

قَالَ : نَعَمْ !

قَالَ مُوسى : ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف] ؟

قَالَ : ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ [الكهف] .

يَا مُوسى ، إِني عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ الله ، عَلَّمَنِيهِ لا تَعْلَمُهُ أَنْتَ ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ الله ، لا أَعْلَمُهُ .

قَالَ مُوسى : ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ [الكهف].

فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلى سَاحِلِ الْبَحْرِ لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا .

فَعُرِفَ الْخَضِرُ فَحَمَلُوهُمَا ، بِغَيْرِ نَوْلٍ « أُجْرَةٍ » .

فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ مِنَ الْبَحْرِ .

فَقَالَ الْخَضِرُ :

يَا مُوسى ، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمِكَ مِنْ عِلْمِ الله ، إِلَّا كَنَقْرَةِ هذَا الْعُصْفُورِ في البَحْرِ .

فَعَمَدَ الْخِضْرُ إِلى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ ، فَنَزَعَهُ فَقَالَ مُوسى :

قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلى سَفِينَتِهِمْ ، فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ؟

قَالَ الْخِضْر : ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾ [الكهف] .

قَالَ مُوسى :

﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف] .

فَكَانَتَ الأُولى مِنْ مُوسى نِسْيَانًا .

فَانْطَلَقَا ، فَإِذَا بِغُلامٍ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ ، فَأَخَذَ الخِضْرُ بِرَأْسِهِ مِنْ أَعْلَاهُ ، فَاقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ .

فَقَالَ مُوسَى :

﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف:٧٤] .

قَالَ : ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الكهف:٧٤] ؟!

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف:٧٧] .

قَامَ الْخِضْرُ بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ .

فَقَالَ مُوسى :

﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾ [الكهف] .

فَقَالَ : ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف:٧٨] .

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « يَرْحَمُ اللهُ مُوسى لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يَقُصُّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا »[١] .

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري .

١٩ـ التأويل

ثُمَّ نَبَّأَ الْخِضْرُ مُوسى .

فَقَالَ : أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَعيبهَا ، وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ « صَالِحَةٍ » غَصْبًا .

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ ﴾

[الكهف].

﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف].

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الكهف].

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٨٢] .

هُنَالِكَ عَرَفَ مُوسى أَنَ أَحَدًا لا يستطيع أَن يُحِيطَ بِعِلْمِ الله ، وَأَنَّ بَعْضَ عِلْمِهِ عِنْدَ بَعْضٍ وَبَعضه عِنْدَ بَعْضٍ ، وفوق كِلِّ ذي عِلْمٍ عَلِيمٌ .

٢٠ـ بنو إسرائيل بعد موسى

وَتُوُفِّي مُوسى وَبَنُو إِسْرَائيلَ يَتِيهُونَ في الأَرْضِ ، عَقَابًا مِنَ الله وَجَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ .

وَضَرَبَ الله عَلَيهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ الله .

إِنَّهُمْ قَدْ أَسْخَطُوا الله الَّذِي جَعَلَ فِيهِمْ أَنْبِيَاءَ ، وَجَعَلَهُمْ مُلُوكًا ، وَآتَاهُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ في عَصْرِهِمْ .

الَّذِي أَنْجَاهُمْ من آل فِرْعَوْنَ يَسُومُونَهُمْ سوء الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ .

الذي فَرَقَ بِهِمُ الْبَحْرَ ، فَأَنْجَاهُمْ وَأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ .

الذي ظَلَّلَ عَلَيْهِمْ الْغَمَامَ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ والسَّلْوَى .

الذي فَجَّرَ لَهُمْ مِنَ الأَرْضِ عُيُونًا ، وَوَسَّعَ لَهُمْ فِي مَأْكَلٍ وَمَشْرَبٍ .

وَكَانَ جَزَاءُ كُلِّ ذلك أَنْ كَفَروا بِآيَاتِ الله ، وَعَصَوْا وَاعْتَدَوا .

وَأَغْضَبُوا نَبِيَّهُمْ مُوسى أَشْفَقَ خَلْقِ الله عَلَيْهِمْ ، وَأَشْفَقَ عَلَيْهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ ، ذَلِكَ الذي كَانَ يَحْنُو عَلَيْهِمْ حُنُوَّ المرْضِعِ عَلى الْفَطِيمِ وَالأم الْحَنُونَ عَلَ الْيَتِيمِ ، ذلك الذي سَبُّوهُ دَعَا لَهُمْ ، وَكُلَّمَا ضَحِكُوا عَلَيْهِ بَكَى لَهُمْ وَكُلَّمَا جَفَوْهُ رَثَى لَهُمْ .

ذَلِكَ الَّذي خَلَّصَهُمْ من أَسْرِ فِرْعَوْنَ ، وَأَخْرَجَهُمْ مِنْ سِجْنِ مِصْرَ إِلَى بَرِّ الْحُرِّيَّةِ والشرف ، ومن حياة الْعَبِيدِ الأَشْقِياءِ ، إلى حَياةِ الأَحْرَارِ الشُّرَفَاءِ .

قَدْ أَغْضَبُوهُ وَآذَوْهُ وَعانَدُوهُ ، وَسَخِرُوا مِنْهُ وَجَعَلُوهُ ، أَهْونَ رَجُلٍ فيهم ، وَكانَ عِنْدَ الله وَجيهًا .

أَلَا يَسْتَحِقُونَ هَذَا الْعِقَابَ وَالْخِزْيَ والذُّلَّ وَالْمَسْكَنَةَ وَالتِّيهَ الدَّائِمِ وَأَلَّا يُفْلِحُوا أَبَدًا ؟

بَلَى ، إِنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ ذلك وَأَكثَرَ بِأَعْمَالِهِمْ : ﴿وَمَاظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ .

*****